أبو بكر الطرطوشي عالما ومفكرا ومربيا

أ.م. د. طارق احمد عبد الدليمي
كلية التربية – جامعة الانبار

أهمية البحث والحاجة إليه

لكل امة من الأمم رجال ساهموا في رقيها وبناء حضارتها ، وكانت كل منها تشهد بأدوارهم ومأثرهم ، و تعرف قدر كل واحد منهم ، وتضعهم في المكان الائق بهم ، وتذكر مناقبهم وأعمالهم ، وابداعاتهم بالاحترام والتقدير ، ليكونوا المثل الصالح والقدوة الحسنة لأجيالها الصاعدة والناشئة ، وكما هو معروف فان القدوة الحسنة صارت ضرورة لابد منها لكي تكون التربية ناجحة وفعالة.

وان الاهتمام بالعلم والعلماء من قبل المجتمعات والشعوب لم يكن وليد الحاضر، فقد كان الاهتمام بهما كبيرا" على مر العصور والازمان ، لدورهما الكبيرفي حياة الانسان ومساعدته في التطور والرقي في هذه الحياة . ومن العلماء الذين كان لهم دورا" بارزا" في تطور الانسانية ورقيها عبر التاريخ هم علماء العرب المسلمون، فكانوا يمثلون واسطة العقد ، تمثلوا العلم الاغريقي ، والعلم الاسكندري ، ولم يكونوا مجرد نقله ، ولكنهم زادوا على ما ترجموه من هذه العلوم وأضافوا اليه الكثير ، وابتكروا علوما" لم يعرفها هؤلاء أو أولئك ، واستحدثوا فنونا" لم يمارسها سواهم (منتصر١٩٨٠: ص ١٣٢) .

فقد ظهر الاسلام في اوائل القرن السابع الميلادي ليقترن مولده وانتشاره بأعظم حضارة عرفها العالم طوال العصور الوسطى ، حضارة التقت في رحابها كافة العناصر النافعة من الحضارات السابقة عليها والمعاصرة لها ، فانتقت من تلك العناصر ما لا يتعارض مع روحها وقينها ومثلها ، واصلحت ما يتطلب الاصلاح اوالتعديل ، ونبذت ما عدا ذلك من مساوئ وانحرافات لا يقرها الدين والعقل (عاشور ١٩٨٦ : ص ١٠).

لقد رفع الاسلام مكانة العلم والعلماء ، وجعل لها أهمية كبيرة في حياة الناس ، وأخراهم (قال الله تعالى يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات) (المجادلة / ١٠) وقال سبحانه وتعالى (شهد الله أنه لا اله الا هو والملائكة والوا العلم) (آل عمران / ١٧) (بل هو آيات بينات في صدور الذين اوتوا العلم) (العنكبوت / ٤٨) (هل يستوي الذين يعلمون والذين لايعلمون) (الزمر /٩) (فاسئلوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون) (النحل / ٤٢)٠ و قال رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكانة العالم (من يرد الله به خيرا" يفقهه في الدين)، وقال صلى الله عليه وسلم((العلماء ورثة الانبياء) ٠

وقد كان الاسلام ثورة كبرى شاملة اتت بمفاهيم جديدة عن الحياتين الدنيا والآخرة ، ونظر نظرة عميقة الى الحياة ومشاكلها وأبعادها ، وطلب من الداخلين فيه أن ينظروا اليها من زاوية جديدة اختلفت عن تلك التي اطل منها غير المسلمين على جوانب الحياة المتعددة ٠

لقد وضع الأسلام اطارا" جديدا" شاملا" لاسلوب الحكم والمعاملات بين الحاكم والمحكوم ، وبين الناس بعضهم وبعض ، ووضعت الشريعة الاسلامية ، حدودا" لهذه المعاملات ، سواء كانت سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية أو غيرها ٠ ولذا كان طبيعيا"ان يبدأ المسلمون بالعمل على فهم تعاليم الاسلام وتفسيرها سواء في الامور الدينية أو الدنيوية لأنه في ضوء هذه التعاليم يتحدد سلوكهم السليم ، ويكون فلاحهم في دنياهم وأخراهم (عاشور ١٩٨٦ : ص ٢٥)٠

وهكذا استمر الاهتمام بالعلم والعلماء عند خلفاء المسلمين وامرائهم ، قال النضر بن شميل : سمعت أمير المؤمنين المأمون يقول : ما أشتهي من لذات الدنيا الا ان يجتمع أصحاب الحديث عندي ويجيء المستملي (المستملي هو من يتولى اسماع الحاضرين من المملي وهو المحدث ، عندما يكثر طلاب الحديث ويتعذر سماع صوته)فيقول من ذكرت أصلحك الله ؟ (سيف ٢٠٠٤ :ص١٠)٠

لقد كانت مجالس العلم عامرة ، يقصدها المحدثون وطلاب الحديث ، بل وعامة الناس ، وتصل الاعداد فيها عشرات الآلاف من الناس ٠قال عمربن حفص : : وجه الخليفة المعتصم من يحزر مجلس عاصم بن علي بن عاصم ، في رحبة النخل التي في جامع الرصافة ، وكان عاصم بن علي يجلس على سطح ، وينتشر الناس الناس في الرحبة وما يليها ، فيعظم الجمع جدا" حتى سمعته يوما" يقول : حدثنا الليث بن سعد ، ويستعاد فأعاد أربع عشرة مرة والناس لا يسمعون .

قال : فكان هارون المستملي يركب نخلة معوجة ، ويستملي عليها ، فبلغ المعتصم كثرة الجمع ، فأمر بحزرهم ، فوجه بقطاعي الغنم فحزروا المجلس عشرين الف ومائة (سيف ٢٠٠٤ :ص ١١)

ان هذا الاقبال الكبير من قبل جميع الناس بمختلف طبقاتهم لحضور مجالس العلم ما هو الا الدليل الواضح والأكيد لما لتلك المجالس في نفوس الناس من حب واهتمام واقبال٠ وقد نبغ في التاريخ الاسلامي عدد ضخم من المربين المسلمين الذين كرسوا حياتهم للعلم والتعليم ، ووضعوا من خلال خبراتهم وتجاربهم عمارة الفكر التربوي الاسلامي ٠ ويمكن القول ان التربية الاسلامية لديها من الفلاسفة و العلماء والمربين المسلمين ما جعلها متميزة في التراث التربوي الإنساني (جرادات ١٩٨٦ : ص ٨٩)٠ والأمة الاسلامية لديها من الرجال العظام الافذاذ على مدار تأريخها الطويل الحافل بالامجاد والبطولات ما لاتملكه أمة من الأمم .

ان امتنا العربية الاسلامية هي بأمس الحاجة الى تذكيرها بالصفحات المشرقة من تأريخها لاعادة الثقة بنفسها ، و تبصيرها بالطريق الذي يأخذ بيدها الى حيث النصر والمجد والكرامة .. طريق الاسلام الخالد ـ ولا طريق سواه ـ الذي صنع اولئك الرجال الغر الميامين (عبد المجيد ١٩٩٠ : ص ١٤)٠

علما" بأن ألأهداف الوجدانية التي نصت عليها كتب مراحل التعليم العام تضمنت الإشارة الى ابراز أهمية دور العلماء العرب والمسلمين في الحياة الإنسانية ، ليطلع كل من المدرس ومن خلاله طلبته على ذلك ، فيزداد تقديرهم للمادة ، والذين ساهموا في تكوينها (الكبيسي ٢٠٠١ : ص ٢٨٢) .

فاذا كان هذا هو قدر العلماء والفقهاء ، واذا كان هذا هو دورهم ، ونتاجهم العلمي على المستوى القومي والانساني ، أفلا يمكن ان تكون التساؤلات الآتية لها حق من المشروعية والوقوف عندها :

١ـ أليس من ألأنصاف أن نعرف قدر علماء أمتنا الاسلامية ودورهم في الحياة الانسانية ؟

٢ـ اليس من ألأنصاف ان نشملهم بدراساتنا العلمية ، وننفض الغبار عن كتبهم و نتاجاتهم العلمية ، ونتعرف على جواهرها الكامنة في بطونها ، ونكون بذلك قد أعطينا بعض الدين لهم ، ونكون بنفس الوقت قد قدمنا خدمة ليس للأمة العربية والاسلامية فقط وانما للأنسانية جمعاء ؟

ويعتقد الباحث بعرضه هذا قد أعطى موضوع الدراسة أهميتها والحاجة اليها قدرها الكافي ،وخاصة أولئك العلماء الذين كان نصيبهم في الابحاث والدراسات من قبل الدارسين والباحثين قليلا" جدا" ،ان لم نقل معدوما" ، وأبي بكر الطرطوشي هو واحد من علماء المسلمين الذين كان لهم دورا"واضحا" في العلم و سبر أغواره ونشره بين الناس ، وإرشادهم ووعضهم ، وهو العالم الزاهد الثائر ، العالم الذي لاتأخذه في الحق لومة لائم ، فقد كان قوالا" للحق ، ولا يبخل في نصحه وإرشاده لكبار السلاطين ، رغم كل المخاطر والصعوبات التي يعرف انه سيواجهها ، ولأهمية هذه الشخصية العلمية والدينية ، ولكون الدارسين والباحثين لم يتناولوا في بحوثهم ان وجدت أهداف البحث الحالي ومحاوره ، بحسب اعتقاد الباحث ، واطلاعه ، فانه ارتأى ان يطرقها ببحثه الحالي ويسلط الضوء عليه والتي قد تكون لها فائدة علمية وتربوية بين الناس بمختلف شرائحهم ونحلهم ومن هذا تتضح أهمية البحث والحاجة اليه ، والوصول الى أهدافه والسعي لتحقيقها ٠

أهداف البحث :

يهدف البحث الى:

١. التعرف على بعض العوامل التي ادت الى تكوين رؤية الطرطوشي الفكرية والفلسفية والتربوية .
٢. التعرف على بعض الجوانب الفكرية الفلسفية والتربوية التي جاء بها أبي بكرالطرطوشي.
٣. استنباط بعض المواعظ والنصائح المضمنة في رسالة أبي بكر الطرطوشي و المرسلة منه الى السلطان المرابطي يوسف بن تاشفين .

حدود البحث :

يشمل البحث وصف للبيئة التي عاش فيها الطرطوشي ، ونشأته ، واسرته ، وحياته العلمية ، والفكرية ،والفلسفية ، والدينية ، والتربوية ٠

طريقة البحث : اتبع الباحث في طريقة بحثه المنهج الوصفي التحليلي ٠

أولاً: مولد ونشأة أبي بكر الطرطوشي والبيئة التي عاش فيها :

١٠مولده ونشأته : هو ابو بكر محمد بن الوليد بن محمد بن خلف بن سليمان ابن أيوب القرشي الفهري الأندلسي الطرطوشي الفقيه المالكي الزاهد المعروف ، المشهور بابن أبي رندقة (ابن خلكان : ٤/ص٢٦٢) ٠

ولد في (٢٦ من جمادى الاولى ٤٥١ هـ = ١٠ من يوليو ١٠٥٩ م) في مدينة طرطوشة الأندلسية ، وهي من كبرى مدن الاندلس ،تقوم على سفح جبل الى الشرق من مدينتي بلنسية وقرطبة ، وبينها وبين البحر المتوسط عشرون ميلا" ، ومحاطة بسور منيع له اربعة ابواب ، وبهادار لصناعة السفن ، وتزدهر بها التجارة ، وتعمر اسواقها بالبضائع ٠

وكانت طرطوشة في ذلك الوقت ثغر مملكة سرقسطة التي تتمتع في ظل امرائها من بني هود بالرخاء وسعة العيش ، وفي الوقت نفسه كانت من حواضر العلم في الاندلس ، وتموج بالعلماء وحلقاتهم التي تمتلىء بطلبة العلم ، وكان أبو الوليد الباجي أحد علمائها الكبار الذين تشّد اليهم الرحال ، وعد امام عصره في الفقه وفي مسائل الخلاف (w w w . Islam on line .net) ٠

وفي هذه المدينة نشأ الطرطوشي وتربى ، وفي مسجدها الكبير تلقى علومه الاولى ، وحفظ القران ، وتعلم مبادىء القراءة والكتابة ودرس شيئا" من الفقه ،و بعدها سافر الى مدن الاندلس الكبيرة الاخرى طلبا" للعلم ، ومن المدن التى زارها مديبة سرقسطة والتي اتصل بكبير علمائها انذاك أبي

الوليد الباجي والذي اخذ عنه الكثير فسمع منه وأجاز له ، ويبدو ان الطرطوشي تتلمذ عليه وهو في سن العشرين أو نحوها أي حوالي سنة (٤٧٠ هـ = ١٠٧٧ م) (w w w .Islam on line . net)٠

وعبّر عنه ابن الحاجب في مختصره الفقهي في باب العتق بالأستاذ ٠ وكان رحمه الله تعالى صحب القاضي أبا الوليد الباجي رحمه الله تعالى بسرقسطة ، وأخذ عنه مسائل الخلاف ، وسمع منه وأجازه ، وقرأ الفرائض والحساب بوطنه ، وقرأ الادب على ابي محمد ابن حزم بمدينة أشبيلية ، ثم رحل الى المشرق سنة (٤٧٦ هـ) (المقري : ص ٨٨)٠

ويبدو ان هذا القول مشكوك في صحته لأن ابن حزم توفي سنة (٤٥٦هـ) ، والطرطوشي في هذا الوقت قد لايتجاوز السادسة من العمر مما يجعل من الصعب عليه السفر والترحال الى المدن البعيدة ، وعلى هذا الاساس قد يكون المقصود من هذا القول ان الطرطوشي تتلمذ على ابن حزم هو انه قرأ كتبه في الآدب واستزاد واستفاد منها (الشيال : ص ٧) ٠ وتشير جميع المراجع على ان ابي بكر الطرطوشي قد قرأ الفرائض والحساب في بلده من دون الاشارة الى ذكر الشيوخ الذين تلقى عنهم هذين العلمين ٠

اما عن اسرة ابي بكر الطرطوشي فان جميع المراجع التي تناولته لم تأتي الى ذكر اسرته والاحوال التي كانت تعيشها ، ولم يسمع عنها الا من خلال روايته لقصة عن اسرته في كتابه (سراج الملوك) والتي يستنتج منها ان اسرة والدته كانت من مدينة سرقسطة ، وان بعض أفراد هذه الاسرة كانوا من رجال الحرب الشجعان ٠

اما والد الطرطوشي فكان اسمه الوليد ، ويرجح انه كان عالما" أو من المشتغلين بالعلم ، وان اسرته كانت على شيء من الثراء وقد يبدو ذلك الوصف من خلال ما قام به والده من توجيهه لابنه هذه الوجهة العلمية والاشراف عليه ورعايته وتربيته لمدة قاربت الخامسة والعشرين من عمره اضافة الى ما قامت به اسرته من خلال تزويده بالمال الكافي قبل سفره وترحاله ٠(الشيال : ص ١١)

٠٣ رحلة الطرطوشي الى المشرق :

غادر ابي بكر الطرطوشي وطنه سنة (٤٧٦ هـ = ١٠٨٣ م) وهو فتى غضا" يافعا" في سن السادسة والعشرين من عمره قاصدا" بلدان المشرق ،حيث ان مسلمي المغرب والاندلس كانت تتطلع نفوسهم وتهفوا ارواحهم دائما" الى المشرق منبت الدعوة الاسلامية ، ومقر البلدان المقدسة : مكة المكرمة والمدينة المنورة وبيت المقدس ، وموطن العلم الاسلامي ، ودار العلماء والمعاهد العلمية المختلفة ، فكانوا في شوق دائم الى مثل هذه الرحلات لغرضين هما : أداء فريضة الحج وزيارة قبر الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم) والاستزادة من العلم والمعرفة ، فكانت محطته الاولى مكة المكرمة واستقر فيها قليلا" بعد أدائه فريضة الحج ٠ (w w w alwatan.com)

وبعدها واصل ترحاله متجها" صوب بغداد حاضرة الخلافة العباسية ، وملتقى أئمة العلم ، ومحط طلاب المعرفة من أرجاء الدنيا ، حيث كانت بغداد حاضرة بني العباس زاخرة بالعلم والمعرفة ومن كان يريد الاستزادة في العلم والمعرفة والرصانة فيهما ومن علمائها ما عليه الا ان يشدرحاله اليها سواء من أقصى المشرق او من أقصىالمغرب ٠

عندما وصل ابو بكر الطرطوشي بغداد وهي كما وصفناها حاضرة الدنيا في العلم والمعرفة ، عايش هذه الحركة العلمية الكبيرة عن قرب وشاهد ما يغدق على علمائها من رعاية وتشجيع من قبل الملوك والمسؤولين وبشكل واسع وكبير ، وقد روى قصة في كتابه سراج الملوك ، وكان قد عايشها وهو في بغداد ويومها كان المشرف على هذه الحركة العلمية الواسعة الوزير نظام الملك والذي وزر

لابي الفتح ـ ملك الترك ـ ابن الب أرسلان ، وكان نظام الملك قد وزر لأبيه من قبل ايضا" ، وكان لنظام الملك دور بارز وكبير في شد أركان الدولة وادارته لها فأستمال الاعداء ووالى الاولياء واستعمل الكفاة وعم احسانه العدو والصديق ، والبغيض والحبيب ، والبعيد والقريب ٠ وان كل هذه الجوانب ما هي الا نتائج للاعمال التي قام به ، وهو رعايته لرجال الدين ، وانشائه المدارس للعلماء ، وبنائه دور العلم للفقهاء ، واهتمامه ورعايته للعباد والزهاد وأهل الصلاح والفقراء .
(الشيال : ص ١٦)٠

ويذكر ابو بكر الطرطوشي قائلا" وانه بالرغم مما قام به نظام الملك وما قدمه من خدمات في تدعيم ملك السلاجقة الا ان الوشاة أرادوا الايقاع بينه وبين السلطان ، حيث أخبروه (أي اخبروا السلطان) قائلين له بان الوزير نظام الملك ينفق الاموال الطائلة على العلماء والفقهاء ، وكان المفروض والاجدى نفعا" ان تنفق هذه الاموال لبناء جيش قوي لمهاجمة القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية وضمها الى ملكك ، وما ان سمع السلطان ملك شاه هذا الكلام حتى استدعى وزيره نظام الملك ، وقد دار بينهما حديث رائع يرويه ابو بكر الطرطوشي في كتابه (سراج الملوك) قائلا" (يا ابت بلغني انك تخرج من بيوت الاموال كل سنة ستمائة الف دينار الى من لاينفعنا ولا يغني عنا ؟ فبكى نظام الملك وقال (يا بني : انا شيخ أعجمي ، ولو نودى على من يزيد لم أحفظ خمسة دنانير ،وانت غلام تركي ، لو نودى عليك عساك تحفظ ثلاثين دينارا" ، وانت مشتغل بلذاتك منهمك في شهواتك ،واكثر ما يصعد الى الله تعالى معاصيك دون طاعتك ٠

وجيوشك الذين تعدهم للنوائب اذا احتشدوا وكافحوا عنك بسيف طوله ذراعان ، وقوس لاينتهي مرماه ثلاثمائة ذراع ، وهم مع ذلك مستغرقون في المعاصي والخمور والملاهي والندماء والطنبور ٠

وأنا أقمت لك جيشا"يسمى جيش الليل ، إذا نامت جيوشك ليلا" قامت جيوش الليل على أقدامهم صفوفا" بين يدي ربهم ، فأرسلوا دموعهم ، واطلقوا بالدعاء السنتهم ، ومدوا الى الله أكفهم بالدعاء لك ولجيوشك ، فأنت وجيوشك في خفارتهم تعيشون ، وبدعائهم تبيتون ، وببركاتهم تمطرون وترزقون ، تمرق سهامهم الى السماء السابعة بالدعاء والتضرع)٠ قال الطرطوشي معلقا" :(فبكى أبو الفتوح الملك بكاءا" شديدا" ثم قال :(شاباش يا أبت شاباش أكثر من هذا الجيش).
(الشيال : ص ١٦، ١٧)٠

لقد كان نظام الملك يرى ان جيش الليل هو جيش العلماء والفقهاء والصوفية والذين لهم من الضرورة قدر ما لجيش الجنود والقواد، وان دعاء العلماء يتعاون مع سهام جيش الجنود في دعم وتثبيت اركان الدولة ٠

لقد تتلمذ ابي بكر الطرطوشي في اثناء وجوده في بغداد على معظم علماء الشافعية فيها وعلى بعض من فقهاء الحنابلة على الرغم من أنه مالكي المذهب ، فتتلمذ على كبير الفقهاء الشافعية في بغداد أبي بكر الشاشي والذي كان يتولى التدريس بالمدرسة النظامية ، ولزم أبا أحمد الجرجاني ، وأبا سعد المتولي ، وهم من أئمة الفقه الشافعي ٠ ثم رحل الى البصرة وتتلمذ فيها على ابي علي التستري المتوفى سنة (٤٧٩ هـ = ١٠٨٦ م) وسمع منه سنن أبي داود (w w w . islam on line. Net) ، (المقري : ص ٨٨)٠

فالطرطوشي في بغداد ، وبعد تفقهه على عدد من اعلامها ، واتمام دراسته في العراق ، وحصوله على كثير من العلوم والمعارف من علمائها غادرها الى بلاد الشام بعد ان بلغ من النضج الفكري

مستوا" يؤهله للتدريس ، وكانت فلسفته الخاصة هي الزهد ، والعمل بالمعروف والنهي عن المنكر (الشيال : ص ٢٧)٠

لقد عاش الطرطوشي في بلاد الشام عالما" زاهدا" ، يعلم الناس ، فأقبلوا عليه وأحبوه ، وأفادوا من علمه ، وذاع صيته ، وكان أصحاب الحكم والسلطان يسعون اليه والى بره ، ولكنه كان ينصرف عنهم ، ويشتد عليهم في القول وابداء النصيحة ٠

قال ابن فرحون (وسكن الشام مدة ودرس بها ، ولازم الانقباض والجماعة وبعد صيته هناك (يقصد هنا بعد صيته أي ذاع صيته)، وأخذ عنه الناس هناك علما" كثيرا" ، وكان اماما" عالما" عاملا" زاهدا" ، ورعا"دينا" متواضعا" متقشفا" ، متقللا" من الدنيا راضيا" باليسير منها ، وتقدم في الفقه مذهبا" وخلافا"٠ ٠

وكان له ـ رحمه الله تعالى ـ نفس ابية ، قيل أنه كان ببيت المقدس يطبخ في شقف ، وكان مجانبا" السلطان معرضا" عنه وعن أصحابه ، شديدا" عليهم مع مبالغتهم في بره) (الشيال : ص : ٢٨)٠

ان صراحة الطرطوشي وقوله الحق ونفسه الأبية قادت بعض الحساد الى ان ينالوا منه عند السلطان ولكنهم لم يستطيعوا ذلك ٠ والطرطوشي الذي كان يجانب السلطان وينأى عنه كان يقوم الليل متعبدا" أثناء مقامه في بيت المقدس ، يشجيه الصوت يسمعه في هدوء الليل يناجي الله ويلوم النفس والقلب ان أغفيا أو توانيا عن ذكر الله ٠

يقول الضبي في(بغية الملتمس) :ان من الدوافع التي جعلت الطرطوشي يذهب الى بيت المقدس هو رغبته في مقابلة ابي حامد الغزالي الذي فاته اللقاء به في بغداد ، وكان الغزالي في تلك الفترة يعاني من محنة نفسية حادة . فالحال التي كان يعيشها في تلك الفترة لم تسمح له بمعرفة قدوم الطرطوشي وسعيه ورغبته في لقائه الا بعد ان غادرها الطرطوشي وبعد عنها (الشيال :ص ٣٠).

فقد كان الغزالي قد اشتهر بما عرف عنه بسعة الاطلاع والذكاء والقدرة على المناضرة ٠ وتعرف عليه نظام الملك ، حيث عهد اليه بالتدريس في مدرسة النظامية ببغداد واستمر في التدريس مدة اربع سنوات ،وترك ثروة علمية روحية دينية تتجاوز السبعين كتابا" في مختلف العلوم (جرادات ١٩٨٦ : ص ٩٢)٠

والغزالي طغى على المفكرين الذين أتوا بعده في مجالات شتى ، وخاصة في مجال التأديب والتعليم والتربويات ٠ وبعبارة أخرى فان الذين كتبوا في (رياضة الصبيان) بعد الامام ابي حامد تغذوا من مائدته ، بل كرروه دون ان يقدموا مبادىء تربوية جديدة ٠ فقد اكتفوا بتوضيح افكاره وتوسيعها ، انهم وسعّوا ما قاله الغزالي ، لاجئين في ذلك الى زيادة تقميش الاحاديث والقصص ، أو الى ادخال تطويرات طفيفة نجحت بفعل تطور بعض الوسائل التعليمية (شمس الدين ١٩٨٦ : ص ١٣)٠

يقول الامام القاضي أبو بكر بن العربي رحمه الله تعالى : تذاكرت بالمسجد الاقصى مع شيخنا أبي بكر الفهري الطرطوشي في حديث أبي ثعلبة المرفوع : (إن من ورائكم أيّاما" للعامل فيها أجر خمسين منكم) فقالوا: بل منهم ، فقال بل منكم ، لانكم تجدون على الخير أعوانا" ، وهم لايجدون عليه أعوانا") ، وتفاوضنا كيف يكون أجر من يأتي من الأمة أضعاف أجر الصحابة مع أنّهم قد أسسوا الاسلام ، وعضدوا الدين ، وأقاموا المنار ، وافتتحوا الامصار ، وحموا البيضة ، ومهدوا الملّة ، وقد قال ، صلى الله عليه وسلم ، في الصحيح : (لو أنفق أحدكم كلّ يوم مثل أحد ذهبا" ما بلغ مد أحدهم و لانصيفه)، فتراجعنا القول ، وتحصل ما أوضحناه في شرح الصحيح ،

وخلاصته : ان الصحابة كانت لهم أعمال كثيرة لا يلحقهم فيها أحد ، ولايدانيهم فيها بشر ، وأعمال سواها من فروع الدين يساويهم فيها في الاجر من أخلص اخلاصهم ، وخلصها من شوائب البدع والرياء بعدهم ، والامر بالمعروف والتهي عن المنكر باب عظيم هو ابتداء الدين والاسلام ، وهو أيضا" انتهاؤه ، وقد كان قليلا" في ابتداء الاسلام ، صعب المرام ، لغلبة الكفار على الحق ، وفي آخر الزمان أيضا" يعود كذلك ، لوعد الصادق ، صلى الله عليه وسلم ، بفساد الزمان ، وظهور الفتن ، وغلبة الباطل ، واستيلاء التبديل والتغيير على الحق من الخلق، وركوب من يأتي سنن من مضى من أهل الكتاب ، كما قال صلى الله عليه وسلم : (لتركبن سنن من قبلكم شبرا" بشبر وذراعا" بذراع ، حتى لو دخلوا جحر ضب خرب لدخلتموه) وقال صلى الله عليه وسلم : (بدأ الاسلام غريبا" ، وسيعود غريبا" كما بدأ) فلا بد ، والله تعالى أعلم بحكم هذا الوعد الصادق ، ان يرجع الاسلام الى واحد ، كما بدأ من واحد ، ويضعف الأمر بالمعروف ، حتى اذا قام به قائم مع احتوائه بالمخاوف وباع نفسه من الله تعالى في الدعاء اليه كان له من الاجر أضعاف ما كان لمن كان متمكننا" منه معانا" عليه بكثرة الدعاة الى الله تعالى ، وذلك قوله : (لانكم تجدون على الخير أعوانا"وهم لايجدون عليه أعوانا")حتى ينقطع ذلك انقطاعا" باتا" لضعف اليقين وقلة الدين ، كما قال ، صلى الله عليه وسلم : (لاتقوم الساعة حتى لا يقال في الارض الله الله) يروى برفع الهاء ونصبها ، فالرفع على معنى لا يبقي موحد يذكر الله ، عز وجل ، والنصب على معنى لا يبقي آمر بمعروف و لا ناه عن منكر يقول : أخاف الله ، وحينئذ يتمنى العاقل الموت ، كما قال صلى الله عليه وسلم : (لاتقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيقول : يا ليتني كنت مكانه) (المقري : ص ٣٨،٣٩)٠

لقد كان الطرطوشي من الزاهدين العابدين ، واراد التعرف على مثله من هؤلاء ، فتعرف في جبل لبنان أثناء مقامه فيه على رجل من الزهاد يسمى عبد الله السايح ، ويبدو ان الطرطوشي كان يعتز بصداقته وانه عقد النية على مصاحبته ، فانه بعد ان ضاق المقام بالشام اثر استيلاء الصليبين على معظم مدنها ، عقد النية السفر الى مصر ، فعرض الأمر على صديقه الشيخ عبدالله السايح لكي يرحل معه ، ولكن الشيخ رفض واحتج ، وقال انه يعيش في المباح من ثمر الاشجار ويأكل من الحلال وبذلك يتفرغ للعبادة ، ولايضمن ان يجد مكانا" آخر تتوفر فيه مثل هذه الشروط ٠

كان الطرطوشي يلتزم بما يلتزم به المتصوفة من اقبال على الزهد والتقشف والعبادة وذكر الله ، ولكن لايؤمن بالعزلة والابتعاد عن الناس ، وكان يرى ان مخالطة الناس ونشر العلم بينهم هو خير وكل الخير ، لهذا استمر في محاورة صديقه السايح واقناعه للسفر معه الى مصر ، فقال له انه يعلم بمصر مدينة تسمى رشيد فيه من المباح الذي ينشد الملح والحطب ، وانهما يستطيعان ان يجمعا من هذين المباحين ما يوفر لهما العيش هناك .

كان السايح يعلم ان الطرطوشي رجلا" فقيه يشتغل بالتدريس ، ويحب ان ينفع الناس بعلمه ، والناس تقبل عليه وتريده فأعلن لصديقه خشيته ان يدفعه هذا النوع من الحياة الى البعد عنه و مفارقته ، ولذلك قد لا يكون سفره مبررا" ، ولكن الطرطوشي طمأنه وعاهده ان لا يفارقه أبدا" ، وهكذا اتفقا على السفر فركبا اطريق الى مصر حتى وصلا الى مدينة رشيد ، وأقاما بها ، فاذا احتاجا الى قوت جمعا من حطب او ملح فباعا ما يحملانه من ذلك على ظهورهما وتقوتا بثمنه (الشيال : ص ٤٠ ، ٤١)٠

وروى أبي طاهر بن عوف تلميذ الطرطوشي ، والضبي تلميذ تلميذ الطرطوشي أبي بكر العربي :ان الافضل شاهنشاه بن بدر الجمالي انتقم من أهالي الاسكندرية بعد انتصاره على نزار المستنصر

، وقام بقتل الكثي من أعيانها وعلمائها ، حتى أنه لم يبقى في المدينة أي عالم كبير من علمائها، وكان ذلك انتقاما" منه لتأييدهم نزار ومبايعتهم له ٠

لقد احس أهل الاسكندرية بحاجتهم الماسة الى فقيه كبير يتصدر حلقات الدرس في مساجدها ليفقه الناس في امور دينهم ، وعندما علموا بوجود ابى بكر الطرطوشي في مدينة رشيد ، كونوا وفدا" من أعيانهم وفقهائهم يتقدمه قاضي المدينة ابن حديد ، وعندما وصلوا إلى رشيد ظلوا يبحثون عن ابي بكر الطرطوشي الى ان راوه مقبلا" عليهم من أطراف المدينة ، ومعه الشيخ عبدالله السايح، وكل منهما يحمل على ظهره حزمة من الحطب ٠

وألقى الطرطوشي ما على ظهره ، وجلس يستمع الى رجال الوفد السكندري ، فاخبروه بما وصلت اليه أحوال المدينة ومجالس العلم فيها ، والقوا اليه برغبتهم في ان ينتقل معهم الى الاسكندرية ليفيدوا من علمه ٠

وكانت المشكلة الاولى قد تجددت ، حيث ان الطرطوشي لا يريد مفارقة صديقه السايح ، والشيخ الزاهد لا يريد مغادرة مدينة رشيد ، فهو لايستطيع في الاسكندرية ان يعيش ويأكل المباح ، كما يفعل في رشيد ، ولكن رجال الاسكندرية توصلوا الى حل هذه المشكلة ، حيث قالوا للشيخ عبدالله السايح ان صاحب صقلية يؤدي لأهل الاسكندرية جزية في كل سنة مقدارها ثلاثمائة قفيز من الشعير ، ووعدوه ان يخصصوا له هذه الجزية ليقتات منها فقال : انا لا أحتاج الى اكثر من رغيف في كل ليلة فضمنوا له ذلك ، فبهذا أقنعوه وبهذا تم الاتفاق ، وانتقل الرجلان الطرطوشي والسايح الى مدينة الاسكندرية ووفوا للشيخ السايح بما قالوه ، وصنعوا له من الشعير عدة أرغفة ، ووضعوها في حبل ، فكان يفطر كل ليلة منها على رغيف ، ويلزم بيته ولايبرحه (الشيال : ص ٤٤ ، ٤٦)٠

أما ابي بكر الطرطوشي فبدأ يدرس وينشر العلم على مذهبه ٠ مذهب مالك ،وتقاطر الناس على حلقاته يأخذون عنه ويقرأون عليه ويفيدون من علمه ، وقد وصف هو الحالة في الاسكندرية عندما وصل اليها وما أحدثه من تغيير في أهلها قال: (ان سالني الله تعالى عن المقام بالاسكندرية لما كانت عليه في أيام الشيعة العبيدية من ترك اقامة الجمعة ومن غير ذلك من المناكر التي كانت في أيامهم أقول له : وجدت قوما" ضلالا" فكنت سبب هدايتهم) ٠

ولم يلبث الطرطوشي في الاسكندرية الا قليلا" حتى ذاع صيته وانتشر ، وجذب الطلاب والعلماء الى حلقات دروسه ، وتزوج بعد مدة قليلة من سيدة غنية من نساء الاسكندرية ، فاطلقت يده في أموالها ، وتحسنت احواله ، ووهبته دارا" من أملاكها ، جعل سكنه معها في الدور الاعلى ، وجعل الدور الاسفل مدرسة يلقي فيها دروسه ، ويستضيف فيها طلاب العلم الغرباء عن الاسكندرية ٠

كانت هذه السيدة التي تزوجها ابوبكر الطرطوشي سيدة فاضلة تقية دينة من بيت من اكبر بيوت الاسكندرية في ذلك الوقت فضلا" وعلما" وجاها" وثروة ، بيت بني عوف ، وكان لهذه السيدة ابن من زوج سابق ، عرف بالطيش والرعونة ، وقد آلمه زواج أمه من ابي بكر الطرطوشي ، وآلمه أيضا" ان تنتقل ثروة امه الى زوجها الجديد ابي بكر الطرطوشي ، ولهذا أضمر في نفسه شرا" ، وأعد خنجرا" ، ودخل في الليل على الفقيه ابي بكر الطرطوشي حيث يقيم مع أمه يريد قتله ، ولكنه وجد الزوجين وكلا" منهما منفردا"يصلي ، وفي طريقه الى الفقيه أصطدم بسارية من سواري المدرسة فسقط مغشيا" عليه ، وأنجى الله الفقيه من هذه المحنة ، وكانت توبة الابن على يديه (الشيال : ص ٤٦ ، ٤٧)٠

وبعد ان استقر الطرطوشي في الاسكندرية ، ذهب الى القاهرة لزيارة الوزير الكبير صاحب السلطان الاعلى في ذلك الوقت الملك الأفضل شاهنشاه ، بعد ان سمع عن جبروته وقوته وسلطانه ، وكانت غايته في ذلك ان يقدم له نصيحة العلماء المخلصين ، وليعظه الموعظة الحسنة ، وليطلب اليه الرفق بالرعية ، واشاعة العدل بينهم ، وفتح أبواب قصره لكل شاك أو متضلم ٠

ولم يكن هذا غريبا" من الطرطوشي الرجل العالم الزاهد الجرىء الذي لايخشى في الحق لومة لائم ، والذي لا يخاف صاحب السلطان ولايهابه ، فهو الذي وصفه ابن فرحون بأنه كان أبّي النفس ، والذي وصفه المقري بأنه كان قوالا" للحق ٠

وقد أثبت الطرطوشي موعضته هذه في كتابه (سراج الملوك) قال: (فلما دخلت على ملك مصر ، وهو الافضل ابن أمير الجيوش ، فقلت : سلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، فرد السلام على نحو ما سلمت ردا" جميلا" ، وأكرم اكراما" جزيلا" ، وأمرني بدخول مجلسه ، وأمرني بالجلوس فيه ، فقلت : أيها الملك : ان الله سبحانه وتعالى قد احلك محلا" عاليا" شامخا" ، وانزلك منزلا" شريفا" باذخا" ، وملكك طائفة" من ملكه ، واشركك في حكمه ولم يرض ان يكون أمر أحد فوق أمرك ، فلا ترض ان يكون أحد أولى بالشكر منك ٠ وان الله تعالى الزم الورى طاعتك ، فلا يكونن أحد أطوع لله منك ٠ وان الله تعلى أمر عباده بالشكر ، وليس الشكر باللسان ، ولكنه بالفعل والاحسان ، قال الله تعالى :(اعملوا آل داود شكرا) ٠ واعلم ان هذا الملك الذي اصبحت فيه انما صار اليك بموت من كان قبلك ، وهو خارج من يدك مثل ما صار اليك٠

فاتق الله فيما خولك من هذه الامة)، فان الله سائلك عن كل شيء وقال له : (قال الله تعالى فوربك لنسألهم أ جمعين عما كانوا يعملون) وقال تعالى (وان كان مثقال حبة من خردل بها ، وكفى بنا حاسبين)٠

واعلم أيها الملك ان الله تعالى قد أتى ملك الدنيا بحذافيرها سليمان بن داود ـ عليهما السلام ـ فسخر له الانس والجن والشياطين والوحوش والبهائم ، وسخر له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب ، ثم رفع عنه حساب ذلك أجمع ، فقال له : (هذا عطاؤنا فامنن أو امسك بغير حساب)٠ فوالله ما عدها نعمة كما عددتموها ، ولا حسيها كرامة كما حسبتموها ، بل خاف ان تكون استدراجا" من الله تعالى ومكرا به ، فقال (هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر) (النمل : ٤٠)٠ فافتح الباب ، وسهل الحجاب ، وانصر المظلوم ، أعانك الله على ما قلدك ، وجعلك كهفا" للملهوف ، وأمانا" للخائف) (التلمساني : ص ٨٧)، (الشيال : ص ٤٨)٠

بهذه العبارات خاطب الطرطوشي الملك الافضل ، وهو في اوج عظمته وسلطنه ، ولم يروي لنا الطرطوشي كيف تقبل الافضل هذا الحديث ، وأغلب الظن أنه استنكره فيما بينه وبين نفسه ، وان كان قد تظاهر بقبوله قبولا" حسنا" ٠ الشيال: ص ٥٠)٠

لقد عاد الطرطوشي الى مدينته الاسكندرية التي استقر فيها بعد اداء مهمته مع الملك في القاهرة ليتابع سيرته في التدريس وليفرغ للعلم والتعليم ، فتكاثر طلابه وأقبلوا على دروسه وأحبوه ، واتبع معهم طريقة جديدة وهي أقرب شيء الى طرق التربية الحديثة ، فصارت طريقته لاتقتصر على اجتماعاته مع طلابه على حلقات الدرس ، بل صار يصطحبهم ويخرج معهم في معظم الاوقات في رحلات خارج المدينة الى البساتين والاماكن الخلوية ، وهناك في الهواء الطلق يلقي دروسه ، أويذاكرهم فيما حفظوه ودرسوه ، فتشوق تلاميذه هذه الطريقه ، فأقبلوا عليه ، وكثر عددهم ، حتى كان اذاخرج في رحلة من هذه الرحلات خرج في موكب لايقل عن أربعمائة طالب ٠

ولكن هذا الاقبال جر على الطرطوشي الوبال فقد ضاق به قاضي الاسكندرية ابن حديد ضيقا"شديدا" ولابن حديد مع الطرطوشي قصة طويلة ، فقد كانت اسرة بني حديد كبرى الاسر في الاسكندرية مكانة وعلما" وثروة وجاها" وسلطانا" وقدولى منصب القضاء في المدينة اكثر من واحد من أفراد هذه الاسرة وقد كان القاضي وقت وجود الطرطوشي بالاسكندرية وهو مكين الدولة ابو طالب أحمد بن عبد المجيد بن أحمد بن حسن بن حديد ، وكان منصب القاضي يلي في الترتيب والمكانة منصب حاكم المدينة وكان يعزز هذه المكانة ان قاضي المدينة كان له اختصاصاته القضائية الدينية الواسعة الى جانب اختصاصات مالية وادارية وضرائيية كثيرة ، وان كل هذه الجوانب التي كانت مناطة بهذا القاضي لم تجعل من الطرطوشي ان يسعى اليه ويمدحه ويكون من حاشيته وكان هذا ما يبغيه القاضي ابن حديد ، وهذا مالم يفعله ابي بكر الطرطوشي ، حيث ان الطرطوشي كان من صنف آخر من الرجال ، وكان يعتد برجولته ، وكان عالمأ يعتز بعلمه ، وكان زاهدا" لايحبذ الحياة المترفة التي كان يعيشها ابن حديد ، ولعله أخذ على ابن حديد بعض تصرفاته المالية ، وبعدها عن قواعد الشرع والاسلام ، واغلب الظن ان الطرطوشي تحدث الى الناس بهذه المآخذ المالية وبشكل متكرر وبقسوة وعنف مما آلم ابن حديد وآذاه ٠ (الشيال :ص ٥٤)٠

لقد صار الحديث بين الناس في الاسكندرية في ذلك الوقت عن الطرطوشي ، وعلم الطرطوشي ، ورحلات الطرطوشي ، وفتاوى الطرطوشي ، بل ولهج الناس بنقد الطرطوشي لتصرفات ابن حديد كقاض ، وتناقلوا هذا النقد فيما بينهم مما أساء الى سمعة القاضي ٠لهذا جمع ابن حديد هذه المآخذ ، ورفعها الى الوزير الأفضل وبين له خطورة الطرطوشي على الاسكندرية واهلها ، ويؤكد هذه الحقيقة ابن فرحون في ترجمته للطرطوشي فقد قال تعقيبا" على حديثه عن رحلات الطرطوشي العلمية عن طلابه : (وهذا من جملة ما رفعه عنه القاضي ابن حديد الى العبيدي ـ يقصد الخليفة الفاطمي ـ ووشي به اليه في امور غيرها ، وكان الطرطوشي يذكر بني حديد ذكرا" قبيحا" ، لما كانوا عليه من من أخذ المكوسات والمعونة على المظالم ، ، وكان يفتي بتحريم الجبن الذي يأتي به النصارى ، ويفتي بقطع محرمات كثيرة ، فخاطب بذلك بنوحديد ، وذكروه للسلطان)٠

والسلطان هنا يقصد به الوزير الافضل، والافضل لم ينس بعد موقف اهل الاسكندرية عندما وقفوا يقاوموه ، ووقفوا مع نزار بن المستنصر ، هذا جانب، اما الجانب الاخر، فهو ان الأفضل لايريد اثارة الشغب في هذه المدينة ، ولو ان هذا العالم الزاهد الثائر ظل على سياسته هذه ينتقد المجتمع ، وينتقد الحاكم ، وينتقد القاضي واحكامه ، وينتقد القواعدوالنظم المالية المتبعة ، وينادي بتحريم الجبن الرومي وغيره من المأكولات التي تأتي من أوربا ، فانه سيسبب للدولة متاعب كثيرة وسيقلص من هيبتها في أعين الشعب ، وسيحرض الناس على مقاطعة التجارة الاجنبية ، فتتقلص ايرادات الدولة بنقصان الضرائب التي تؤخذ على هذه التجارة الواردة ٠ الشيال : ص ٥٥)٠

والأفضل يدرك خطورة التقرير الذي رفعه اليه ابن حديد بشأن الطرطوشي ، فالطرطوشي ليس غريبا" عليه ، فهو يعرفه جيدا" منذ ان قابله في المرة الاولى ، وهو يذكر موعظته الجريئة التي ساقها اليه ، وما تضمنته من كلام قاس ولاذع ، ومن جرأة نادرة في قول الحق ، لهذا اراد ان يحسم الشر قبل وقوعه ، فارسل الى والي الاسكندرية يأمره بارسال الطرطوشي اليه ٠ الشيال : ص٥٦)٠

وجاء الرسول الى الطرطوشي ، واراد ان يعطيه فرصة يستعد فيها للسفر فقال له (يسر حوائجك ، فانك تمشي يوم كذا) ٠ فقال الطرطوشي:(وأي حوائج معي؟ ريشي رياشي،وطعامي

في حوصلتي)٠ والمقصود هنا انه لايوجد لديه اشياء يحملها، وكل ما لديه هو ملابسه التي يرتديها.

وعندما وصل الطرطوشي القاهرة قابله الأفضل مقابلة طيبة ، ولكن أمره بالبقاء في الفسطاط ، وحدد اقامته في مسجد الرصد جنوبي الفسطاط ، ومنع الناس من الاتصال به وألأخذ منه ، وعين له راتبا" شهريا" بضعة دنانير يأخذها من متحصل جزية اليهود ، وسمح لخادمه بالاقامة معه (الشيال: ص ٥٦)٠

لقد بقي الطرطوشي في معتقله مدة طويلة بلغت شهورا" ، فضجر من التضييق على حريته ، واشتد كرهه للافضل ، تقول المراجع :(وكان الشيخ يكره الأفضل ، فلما طال المقام به أي بالمعتقل ، ضجر وقال لخادمه : الى متى نصبر ؟ اجمع لي المباح من الارض ، فجمع له ، فأكله ثلاثة أيام ، فلما كان عند صلاة المغرب قال لخادمه : (رميته الساعة) ، فلما كان من الغد ركب الأفضل فقتل ٠

وهذا يعني ان الطرطوشي عندما ضاق به الحال طلب من خادمه ان يأتي له من المباح ، واكله ثلاثة أيام ، بعد ان امتنع عن الاكل الذي يأتي من الافضل ، وظل فيها معتكفا" يصلي ويتعبد ويبتهل الى الله ، فما ان جاء قتل الأفضل ، وكان في اليوم السابق لعيد الفطر من سنة ٥١٥ هـ٠

وبذلك انكشفت الغمة عن الطرطوشي ، بعد ان ولي الوزارة المأمون البطائحي ، الذي يعلم ما بين الرجلين ، فافرج عن الطرطوشي فقربه اليه واكرمه اكراما"كبيرا"(الشيال : ص٥٧)٠

وبعد ان تجاوز الطرطوشي هذه المحنة التي الت به عاد الى الاسكندرية وبدأ يؤلف كتابا" في السياسة وفن الحكم ، وما يجب ان يكون علي الراعي والرعية ، واستغرق تأليفه لهذا الكتاب سنة كاملة ، وسماه (سراج الملوك) وفي شوال سنة ٥١٦ هـ حمل الكتاب وسافر الى القاهرة ليقدمه الى الوزير المأمون البطائحي ، وليعيد الحديث معه في الاوضاع السقيمة القائمة في الدولة ، والتي لا يقرها الشرع ٠

ولما علم الوزير بوصول الطرطوشي الى القاهرة ، حتى أمر بانهاء اللقاءالذي كان يضمه مع الكتاب وكبار الموظفين يعرضون فيه شؤون الحكم ، ،امر بمد السماط ، واستدعي الفقيه لمقابلته ، فلما دخل عليه ، وقف الوزير ، ونزل من مرتبته ، وجلس بين يدي الطرطوشي ، ويعد هذا اكبر دليل على المكانة العالية التي يحضى بها الطرطوش عند الوزير البطائحي ، ، فلم تكن من عادة الوزير الفاطمي أن يقوم لتحية القادم عليه مهما كانت مكانته ، ولكن المأمون البطائحي لم يقتنع بالوقوف لتحية الطرطوشي فقط بل ، بل ترك مرتبته ونزل فجلس بين يدي يديه كما يجلس التلميذ بين يدي الأستاذ ٠ (الشيال : ص ٥٨)٠

وبعد المقابلة أمر بانزاله في مكان خاص اعد له ، وأمر ان يرتب له خمسة دنانير في اليوم ، ولكن الطرطوشي رفضها ، وطلب ان يصرف له ديناران فقط ، وهو المبلغ الذي كان يصرف له أيام الأفضل ٠ وكان المأمون يستدعيه لجلسه الخاص الذي كان يعقده يومي راحته من كل اسبوع ، فيستمع الى شكاواه ويجيب شفاعاته ٠

وقد التقى الطرطوشي عدد من علماء الاندلس الذين رحلوا الى المشرق ، ففي مكة التقى القاضي الشهير الشهيد ابوعلي الصدفي ، والتقى مساعد بن احمد بن مساعد (المقري : ص ٩١ ،٦٤٤) ، وفي مصر التقى العالم محمد بن ابراهيم بن احمد بن اسود المعروف بابوبكر الغساني ، وأبو بكر محمد بن الحسين الشهيربالميروقي ، وابو محمد طارق بن موسى بن بعيش (المقري : ص ٥١ ،١٥٥، ٥١٣)٠

نجح الشيخ ابي بكر الطرطوشي في اثناء اقامته بالاسكندرية من احداث نشاط علمي كبير ، وتتلمذ عليه عدد كبير من الفقهاء ، حمل بعضهم الراية من بعده ، مثل سند بن عنان الذي خلف الطرطوشي في مدرسته ، وأبي طاهربن عوف ، وكانت له مدرسة مستقلة ٠وظل الطرطوشي يواصل عمله في مدرسته حتى توفي في (٢٦ من جمادى الاولى ٥٢٠ هـ =٢٠ من يونيو ١١٢٧م) وهو في التاسعة والستين من عمره (w w w . islam online net)

ولما توفي صلى عليه ولده محمد ، ودفن رحمه الله تعالى قبل الباب الاخضر بالاسكندرية (المقري : ص ٨٨)٠

ثانيا" : العوامل التي أدت الى تكوين رؤية الطرطوشي الفكرية والفلسفية والتربوية :

من خلال استعراض الباجث لحياة ابي بكر الطرطوشي السالفة الذكر ارتأى في هذا المبحث ان يؤشر بعض العوامل التي يعتقد انها ادت الى تكوين رؤية ابي بكر الطرطوشي الفكرية والفلسفية وهي كما يأتي :

٠١ مرحلة الطفولة : ان مرحلة الطفولة التي عاشها أبي بكرالطرطوشي في بلاد الاندلس هي حياة ذات توجه ديني ، فقد تربى في مسجد طرطوشة وتلقى علومه الاولى فيه ، وبعد ان شب تتلمذ على يد القاضي ابي الوليد الباجي ، وهو شيخ الاندلس و عالمها في ذلك الوقت ٠ فطبيعة الحياة الدينية التي كانت سائدة في الاندلس في ذلك الوقت ، ونمط التربية التي تلقاها على هذا الشيخ طبعت شخصية الطرطوشي وجعلته يتشوق ويندفع من اجل الحصول على المعلومات والمعارف الدينية مهما كلفه ذلك من جهد ومشقة ولذلك وجدناه متنقلا" من مكان الى مكان آحر لا لشيىء الا لغرض الحصول على المعرفة العلمية التي كان يتغياها جميع طالبي العلم في الاندلس في ذلك الوقت٠

وعلماء النفس يعتقدون أن شخصية الفرد تتكون منذ ولادته ، ثم تتطور خلال الطفولة عن طريق اختلاط الطفل بالآخرين وعلاقته بهم ، حيث يتأثر الطفل منذ ولادته بما يحيط به من عوامل بيئية واجتماعية ٠ ويختلف كل قوم في الاساليب التي يتبعانها في تربية اطفالهم عن الأقوام الآخرين (الآلوسي ١٩٨٣ : ص ١٢٣)٠ وهذا هو الذي حصل للطرطوشي ، فطبعت شخصيته بالعوامل البيئية والاجتماعية التي كانت سائدة في مجتمعه الذي عاشه في طفولته .

٠٢ صداقته وصحبته للعابد الزاهد عبد الله السايح : الصداقة نوع من المحبة ، والصداقة من المشائخ ، ومن كان في مثل طباعهم انما تقع لمكان المنفعة ، فهم يتصادقون بسببها ، فاذا كانت المنافع مشتركة بينهم ، وهي في الاغلب طويلة المدة كانت الصداقة باقية . وحين تنقطع علاقة المنفعة بينهم وينقطع رجاؤهم من المنفعة المشتركة تنقطع موداتهم . والصداقة بين ألأخيار تكون لأجل الخير وسببها هو الخير . ولما كان الخيرشيئا" غير متغير الذات صارت مودات أصحابه باقية غير متغيرة (ابن مسكويه ١٩٨١ : ص ١١٥) .

وقد يكون مثل هذا صداقة أبي بكر الطرطوشي وصحبته للعابد الزاهد عبدالله السايح الذي التقاه في جبل لبنان ، والذي أعجب به وبطريقة عيشه ، ورؤيته للحياة ، واسلوب تفكيره للحياة الدنيا والاخرة ، فوجد ان وجهات النظر بينهما متطابقة ، ولذلك أقر على عدم مفارقته ، وبذل ما امكن عمله في اصطحابه معه الى بلاد مصر ، وفعلا" تحقق له ما أراد في وصولهما معا"الى رشيد في مصر ، فكانت صاقتيهم لأجل الخير ، ولذا استمرت وبقيت ، وازداد تفكيرهما ، وتأصل توجهما الفكري باسلوب التأثر والتأثير بين بعضهم البعض .

٣. علماء وفقهاء بغداد والبصرة : كانت بغداد في زمن العباسيين مركزا" فكريا" عالميا" مهما" ، ويقترن ذكرها بذكر الثقافة والفن ، والادب . واستقطبت العلماء من الارجاء كافة ، ونشطت الحياة الفكرية فيها من خلال التدوين والتأليف والترجمة التي أولاها الخلفاء العباسيون الأوائل أهمية كبيرة واصبح طلب العلم جماهيريا" ، وازدهرت وازدحمت مجالس الحديث بالآف الناس ، فتفجرت الطاقات الابداعية للعلماء والمفكرين ، وظهرت مؤلفات في مختلف مجالات العلوم (محمد ١٩٩٢ :ص ١٥٣) .

ووسط هذه الحياة الفكرية الكبيرة ، تعايش أبي بكر الطرطوشي بجد ومثابرة ينهل منها ويستزيد من علمائها الكثير من العلوم والمعارف ، لذا يمكن اعتبار هذه الفترة التي قضاها في بغداد والبصرة من العوامل الأساسية التي ساهمت في تكوين رؤية ابي بكر الطرطوشي الفكرية والفلسفية ، فكوكبة العلماء والفقهاء الذين التقاهم في اثناء زيارته ، واقامته في بغداد والبصرة ، ولقائه بعدد من علمائها وفقهائها واندماجه معهم ، واخذه منهم العلم الكثير ، كان لها أثر بارز في حياته ، حيث كان غالبيتهم من المضطلعين بالفقه والعلوم الدينية ، ومن المتصوفة الذين يعتقدون ان الحياة نعيم زائل ، والذين كانوا يفرغون لحياة الزهدوالتقشف وعبادة الله سبحانه وتعالى وذكره ،وقد سمع منهم شعرا" كثيرا" ، ورواه عنهم في كتابه (سراج الملوك) ، وكان هذا الشعر يضرب كله المثل بالامم الغابرة ، وما بنت من قصور ، وما زينت من عمائر ، وكيف انتهى كل هذا الزخرف الى زوال ، ويدعوا الى اتخاذ الموعظة من هذا كله ، فهو يقول :انشدني القاضي أبو العباس الجرجاني ـ رحمه الله ـ بالبصرة :

بالله ربك كم قصر مررت به قد كان يعمر باللذات والطرب ؟

طارت عقاب المنايا في جوانبه فصاح من بعده بالويل والحرب

وانشدني أيضا" :

أيها الرافع البناء رويدا" لن تذود المنون عنك المباني

ان هذا البناء يبقى ، وتفنى كل شيء أبقى من الانسان

وقد روى ابو بكر الطرطوشي ان شيخه أبا محمد التميمي انشده ببغداد قائلا" :

لمن أبني ؟ لمن اسم المطايا ؟ لمن أستأنف الشيء الجديدا ؟

اذا ما صار اخواني رفاتا" وصرت لفقدهم فردا" وحيدا

أعاين معشرا" لهم شكول واشكالي قد اعتنقوا اللحودا

وقد روى الطرطوشي في كتابه سراج الملوك حديثا" دار بينه وبين أحد اصدقائه العراقيين ، وهذا الحديث كان له الأثر البالغ في حياة الطرطوشي الفكرية والفلسفية ، فذكر انه في أحد الأيام ، وعندما كان يشرب الماء بقدح من الفخار ، فقال له ، صديقه لربما هذا القدح الذي تشرب فيه كان يوما" من الدهر انسانا" ، وعندما مات صار ترابا" ، وصادف ان أخذه الفخاري ، وصنعه كوبا" ،

وبعد ذلك وضعه في النار حتى استقر ان يكون كوبا" كما ترى ، ويذكر الطرطوشي ان هذا الحديث شغل فكره وعقله كثيرا"، فهذه النظرة الفلسفية المعمقة الى الانسان ووجوده ومصيره ، وكيف خلق ؟ و مم خلق ؟ وكيف ينتهي والى أين يصير ؟ وكيف تنتهي الحياة الحياة الى الموت ؟ ثم كيف تتجدد الحياة من الفناء ؟٠كل هذه الرؤا والتساؤلات الفلسفية هزت كيان الطرطوشي الفكري ، وادرك ما وراء هذا من حقيقة ، ولربما هذا كان له الأثر الفاعل في تكوين فكر الطرطوشي الفلسفي ، فصار ينهج فلسفة خاصة في حياته ، وهذه الفلسفة هي فلسفة الزهد، والعزوف عن الملذات والشهوات ، والجرأة على كل كبير في سبيل الحق ، وفي سبيل تدعيم أوامر الله سبحانه وتعالى (الشيال : ص ٢٣) ٠

٠٤ الحياة المستقرة في مدينة الأسكندرية : ومن العوامل التي ساعدت على اثراء فكر الطرطوشي هو استقراره في الاسكندرية ، وزواجه من أمرأة سكندرية صالحة وثرية ، وفّرت له كل مايحتاج اليه للوصول الى مبتغاه في جني العلم والمعرفة ونشرها بين طلبته وبين عامة الناس، وتقديم العون والنصح والارشاد لمن يحتاج اليه. فقد توفر له المكان الملائم للسكن الذي لم يعد له ان ينشغل به ، وتوفر له الوقت الكافي للكتابة والتأليف ، وغيرها من الظروف المعاشية الاخرى ، مما جعله في حالة نفسية جبدة أسهمت في اندفاعه المبدع نحو العلم والتعليم .

٠٥ اعجاب الناس بعلمه وفكره : والتفافهم حوله والوثوق به حفزه الى الاندفاع الكبيرلاستغلال كامل طاقاته في افادة الناس وارشادهم ووعضهم الى الطريق السليم ٠ ان هذه الظاهرة التي كان يراها من غالبية الناس زادت ثقته بنفسه مما حفزته الى ابداع اكثروانتاج فكري أكبر وخاصة في مدينة الاسكندرية التي استقر فيها . ٠

٠٦ تشجيع بعض الوزراء الذين تعايش معهم وخاصة الوزير مأمون البطائحي الذي حرره من الاعتقال وسهل له الامور ووفر له فرصة مناسبة ليعود الى الاسكندرية ، ويستقر فيها ، ويمارس نشاطه العلمي بجد ومثابرة ، وينجز خلال عام كامل كتابه (سراج الملوك) ويعود الى القاهرة مرة اخرى حاملا" كتابه هذا ليقدمه هدية" للوزير في (٥١٦ هـ) ، وكتب عليه:

ألناس يهدون على قدرهم لكنّني أهدي على قدري

يهدون ما يفنى وأهدي الذي يبقى على ألأيام والدهر

ثالثا" : بعض الجوانب الفكرية والفلسفية والتربوية عند ابي بكر الطرطوشي :

لقد كانت الزعامة الفكرية في أواخر القرن الخامس ، وأوائل القرن السادس الهجريين للعالمين الكبيرين ،الامام الغزالي في الشرق ، وابي بكر الطرطوشي في الاسكندرية والمغرب ، وفيما يأتي بعض الجوانب الفلسفية والتربوية التي جاء بها ابي بكر الطرطوشي :

٠١ الفلسفة : يرتكز التصور الاسلامي الفلسفي على العقيدة الاسلامية التي عبر عنها القرآن الكريم في كثير من آياته بالايمان ، كما عبر عن الشريعة الاسلامية المنبثقة عنها بالعمل الصالح : (إن الذين أمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا) (الكهف : ١٠٧)فالعقيدة هي التي تبنى عليه الفلسفة الإسلامية والنظم الإسلامية التي تكون بمجموعها الشريعة الإسلامية .

وقال ابن مسكويه : ان الفلسفة تنقسم الى قسمين : الجزء النظري ، والجزء العملي ، فاذا كمل الانسان بالجزئين نال السعادة التامة . اما كماله الأول باحدى قوتيه وهي العالمة ، فبها يشتاق الى

العلوم فهو ان يصير بالعلم بحيث يصدق نظره وتصح بصيرته وتستقيم رؤيته فلا يغلط باعتقاد ولايشك في حقيقة وينتهي في العلم بامور الموجودات على الترتيب الى العلم الالهي الذي هو آخر مرتبة العلوم ويثق به ويسكن اليه ويطمئن قلبه وتذهب حيرته وينجلي له المطلوب الأخير . أما الكمال الثاني الذي يكون بالقوة العاملة ، فهو الكمال الخلقي ومبدؤه من ترتيب قواه وأفعاله الخاصة بها حتى لا تتغالب وحتى تتسالم هذه القوى فيه وتصدر افعاله كلها بحسب قوته المميزة منتظمة مرتبة على احسن وجه وينتهي الى التدبير المدني الذي يرتب الافعال والقوى بين الناس حتى تنتظم ذلك الانتظام ويسعدوا سعادة مشتركة كما كان ذلك في الشخص الواحد (ابن مسكويه ١٩٨١ : ص ٣٣) .

وعن رؤية أبي بكرالطرطوشي الفلسفية ، فانها تدور في فلك الفلسفة الاسلامية ، حيث كان منهجه الفلسفي الأول في الحياة ، هو الورع والتقوى ، والزهد ، والتقشف ، والتمسك الشديد بأهداف الدين ، وكانت وسيلته الكبرى التي التزم بها هي : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في شدة وصرامة . وقد تمسك بهذه الفلسفة ، واتخذها نظرية تربوية له ، في حياته وفي دراسته ، وفلسفته التربوية هذه استهدي بها في تدريسه لطلابه ، ومنها اشتق أهدافه وسعى الى تحقيقها .

وكانت فلسفة الطرطوشي في الزهد لا تعني الانقطاع عن الناس وعدم التواصل معهم ، بل كانت ترمي الى التفاعل معهم بمختلف طبقاتهم وكياناتهم فلايفرق بين هذا وذاك ، وكان يلتقي بمن يستطيع اللقاء به ويقدم له ما يستطيع ان يقدم له من النصح والارشاد ، والاجابة على جميع التساؤلات الدينية والفكرية وغيرها٠

وهكذا فهو يقول (اذا عرض لك أمران ـ أمر دنيا وأخرى ـ فبادر بأمر الأخرى يحصل لك أمر الدنيا والأخرى)٠ ويقول (ان الرعية اذا قدرت على ان تقول قدرت على ان تفعل ، فاجتهد الا تقول تسلم من ان تفعل)٠

٠٢ العلم والعلماء : أكد أبي بكر الطرطوشي أهمية العلم والعلماء ،ويرى ان العلماء ، هم السياج الذي يمنع الحكام من الظلم ، ومن ان يسيروا في غيهم فقال (ان العلم عصمة الملوك والامراء ، ومعقل السلاطين والوزراء ، لانه يمنعهم من الظلم ، ويردهم الى الحلم ، ويصدهم عن الاذية ، ويعطفهم على الرعية ، فمن حقهم أن يعرفوا حقه ، ويكرموا حملته ، ويستبطنوا أهله) الشيال : ص ٨٩)٠

وكما ان الطرطوشي أكد على أهمية العلم والعلماء في كتابه (سراج الملوك) الذي أهداه الى مأمون البطائحي ، نجد ان ألأمام الغزالي أكد ايضا" على مكانة العلماء في كتابه (الذهب المسبوك في نصيحة الملوك) الذي أهداه الى الملك السلجوقي السلطان محمد بن ملك شاه ، فقال ألأمام الغزالي في حديثه عن أهمية العلماء ومكانتهم ، وما يجب على الملوك من تقربهم اليهم واستشارتهم ولأخذ بنصائحهم : (أيها السلطان : خطر الولاية عظيم ، وخطبها جسيم ، ولا يسلم الوالي الا بمقاربة علماء الدين ليعلموه طرق العدل ، ويسهلوا عليه خطر هذا الأمر) . ان هذا التشابه في العمل ومخاطبة الملوك من قبل الغزالي والطرطوشي ، واهدائهما لهما بعض من نتاجاتهما الفكرية المهمة ، ما هو الا دليل واضح على أهمية العلم والعلماء في الحياة ، وهذا الشيء هو احد صفات وملامح التربية العربية الإسلامية .

٠٣ ألأخلاق : ان علم الاخلاق ،هو (علم باصول يعرف به حال النفس من حيث ماهيتها وطبيعتها وعلة وجودها وفائدتها وما هي وظيفتها التي تؤديها وما الفائدة من وجودها وعن سجاياها وأميالها وما ينقلها بسبب التعاليم عن الحالة الفطرية) (ابن مسكويه : المقدمة) .

ولما كان موضوع علم الأخلاق البحث في حال النفس وهي اشرف الموجودات بسبب جوهرها المجرد الذي تناسب به انفس الملائكة من هذه الجهة كانت صناعته من أقدس الصناعات واكرمها ، ولذلك أول شيىء اختط في الخطط البشرية . وبيانه ان سلسلة الصناعة نشأت عن مبدع الصنع تقدس ذاته . ثم أفاض المعلومات والاسماء الدالة على المسميات على أول بشر خلقه من خلقه وجعله خليفته في ارضه ولم يعلمهما ملائكته المقربين لما في ذلك من عدم الضرورة الداعية الى تعليمهم اياها لتجردهم عن ماديات هذا العالم وكشافته ولانهم منزهون عن معنى المشاركة في المصالح الارضية التي تستلزم المزاحمة وهي بلا شك تقتضي وجود صناعة ذات اصول وقواعد لتربية الانفس بحيث تجعلها صالحة للبحث في احوال الموجودات على وجه يضمن الاعتدال في الطلب ويسير بكل نفس الى ما اعدت له وتهيات اليه (ابن مسكويه : المقدمة) . ان الأحرى ، بالقائمين على مصالح الناس ان يغرسوا فيهم ويعلموهم أنواع التهذيب بالعلوم ونشر الفنون وجعل ما ينشر منها نافعا" في تنوير البصائر وتقويم المدارك التي تجعل صاحبها قادرا" على الأخذ بالمنافع وترك المضار.

ولأهمية الأخلاق ودورها في تماسك المجتمع ، فقد أشار الطرطوشي الى ضرورة ان يتحلى صاحب كل وظيفة بالمبادىء الاخلاقية ، ملكا" كان أم وزيرا" أم واليا" ام قاضيا" ، داعما" ذلك بالحكم والأمثال والقصص التي تؤيد هذه المبادىء ، وهذه الحكم والقصص والنوادر هي من سير ألأنبياء والخلفاء والصالحين ٠

٤٠ السياسة والأخلاق : أبي بكر الطرطوشي واحدا" من المفكرين الذين لم يفرقوا بين السياسة والأخلاق ، فكان ينظر اليهما على انهما شيئا" واحدا" ، وبهذه الرؤية يتفق مع فلاسفة اليونان القدامى ومفكريهم ، ويختلف مع فلاسفة أوربا في عصر النهضة ، والعصر الحديث ، من أمثال : جون لوك ، و جان جاك روسو وغيرهم الذين كانوا يفرقون بين السياسة والأخلاق ، ويفكرون في مشاكل السياسة وموضوعاتها تفكيرا" مستقلا" عن تفكيرهم الخلقي ، والطرطوشي برأيه هذا يشابه بعض المفكرين الاسلاميين الذين لم يفرقوا في مؤلفاتهم بين السياسة والاخلاق ، ويعتبروه الواحد مكل للاخر (الشيال : ص ٨٥)٠

٥٠ العدل : ان الشخص العادل هو الذي يستعمل العدالة في ذاته وفي شركائه المدنيين ، والجائر يستعمل الجور في ذاته وفي أصدقائه ،ثم في جميع شركائه المدنيين ، قال أرسطو طاليس (ليست العدالة جزءا" من الفضيلة بل هي الفضيلة كلها ولا الجور الذي هو ضدها جزءا" من الرذيلة لكنه الرذيلة كلها) (ابن مسكويه : ص٩٧) .

وقد أشار أبي بكرالطرطوشي الى أهمية العدل ، وأكد على أهمية ان يكون السلطان عادلا" بين الناس ليعم الخير جميع الناس بدون استثناء ، وبهذا يكون قد أسهم في بناء المجتمع ، وتوطيد علاقة الراعي بالرعية ، فقال (ليس فوق رتبة السلطان العادل رتبة ، كما ان خيره يعم ، كذلك ليس دون رتبة السلطان الجائر الشرير رتبة لشرير ، لأن شره يعم ٠ وكما ان بالسلطان العادل تصلح البلاد والعباد ، كذلك بالسلطان الجائر تفسد البلاد والعباد ، وتقترف المعاصي والآثام ، وذلك أن السلطان اذا عدل انتشر العدل في رعيته ، فاقاموا الوزن بالقسط ، وتعاطوا الحق فيما بينهم ، واذا جار السلطان انتشر الجور وعم العباد ، فرقت اديانهم ، واضمحلت مرءاتهم ، ففشت فيهم المعاصي ، وذهبت أماناتهم ، فضعفت النفوس ، وقنطت القلوب ، فمنعوا الحقوق ، وتعاطوا الباطل ، وبخسوا المكيال والميزان ٠٠ فرفعت منهم البركة ، وامسكت السماء غيثها)٠

ويعزز الطرطوشي آرائه وأقواله في سرد حادثة شاهدها وهو في الاسكندرية تأكيدا" لما قال في ان السلطان اذا جار وظلم انتشر الجور ، فرفعت البركة وقل الرزق قال (وشهدت أنا بالأسكندرية

والصيد بالخليج مطلق للرعية ، والسمك فيه يغلي الماء به كثرة ، ويصيده ألأطفال بالخرق ، ثم حجره الوالي ومنع الناس من صيده ، فذهب السمك حتى لايكاد يرى فيه الا الواحدة الى يومنا هذا) ٠ ويعلق على هذا الخبر مرة اخرى بقوله : (وهكذا تتعدى سرائر الملوك وعزائمهم ومكنون ضمائرهم الى الرعية ، ان خيرا" فخيرا" وان شرا" فشرا"٠

٠٦ العصر الذهبي هو عصر الرسول محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ : لقد آمن الطرطوشي ، ومن نهج نهجه ممن ألفوا في البدع أن العصر الذهبي هوعصر النبي محمد صلى الله عليه وسلم وصحابته الأكرمين ، وان كل اصلاح يجب ان يكون بالرجوع الى مثل هذا العصر الأول ، وان كل انحراف عن هذه المثل يعتبر بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة الى النار (الشيال : ص ٩٣)٠

٠٧ طريقة خاصة وجديدة في التدريس : ان المفهوم العام لطريقة التدريس تعني ترتيب وتنظيم الظروف الخارجية للتعلم ، واستخدام الأساليب التعليمية الملائمة لهذا الترتيب بحيث يؤدي ذلك الى الاتصال الجيد مع المتعلمين من أجل تمكينهم من احراز تعلم شيىء ما ٠ وأما المفهوم الخاص لها تعني اعتماد استراتيجية معينة بانجاز موقف تعليمي معين ضمن مادة دراسية معينة ، كالرياضيات أو اللغة العربية ، أو الفيزياء ، أو الجغرافية أو التاريخ ٠٠٠ الخ ٠

ومن عرض المفهوم العام والخاص لطريقة التدريس يمكن أن نستنتج ان الطريقة التدريسية وسيلة لنقل المعلومات والمعارف والمهارات للمتعلم ، وكذلك تعد وسيلة متقدمة للاتصال به والتفاعل معه ، وكمثيرة تعليمية لسلوك المتعلمين ، وتنظيم النشاط المعرفي لهم ، ووسيلة للابتكار والابداع ، كما أنها وسيلة متصلة وظيفيا" مع الوسائل التربوية الاخرى لتحقيق الأهداف التربوية (محمد ١٩٩١ : ص ٣٩ ؛ ٤٠ ؛ ٤١) ٠

لقد اتبع الطرطوشي طريقة خاصة في التدريس خلال تدريسه لطلابه في الاسكندرية ، والتي تعد اليوم من الطرق الحديثة ، والتي ينادي بها الكثير من المربين في العصر الحديث ، وتقوم هذه الطريقة على اصطحاب طلابه في رحلات الى البساتين وألأماكن الجميلة ، وهناك في الهواء الطلق يلقي دروسه أو يذكرهم بما حفظوه ودرسوه ، وقد اثبتت طريقته هذه نجاحا" كبيرا" بين طلبته ، حيث انهم التفوا حوله ، وجعلت قلوبهم تتعلق به وتأنس معه ، فكانت طريقة جديدة لم تقتصر على الحلقات الدراسية في بيته او في المسجد بل تجاوزتها الى الاماكن الفسيحة والبساتين الجميلة وفي الهواء الطلق ٠ ويصف أحد تلامذة الطرطوشي استاذه في هذه الرحلات (والمقصود هنا في استاذه الطرطوشي) ، فيقول (كان صاحب نزهة مع طلبته في اكثر الاوقات ، يخرج معهم الى البستان ، فيقيمون الأيام المتوالية في فرحة ومذاكرة ومداعبة مما لا يقدح في حق الطلبة ، بل يدل على فضلهم وسلامة صدرهم ، وخرجنا معه في بعض النزهة فكنا ثلاثمائة وستين رجلا" لكثرة الآخذين عنه المحببين في صحبته وخدمته . **(w w w . islam on line . net)**

ان هذا الاقبال الكبير على مواكبة التعلم على ابي بكر الطرطوشي ، يعني نجاحه في عمله التعليمي لطلابه وذلك لمراعاته الجوانب التربوية والنفسية لهم ، واستخدامه الطريقة وألاسلوب الأمثل والجديد الذي اتبعه معهم ، وهذا ماخلق دافعية عالية لديهم نحو التعلم والاستزادة من المعرفة ٠ لأن السبل التي في هديها يمكن ان يصار الى ايجاد دافعية للتعلم ، كما حددها كلاوسماير وكودوين (١٩٦٩ م) هي كالآتي :

آ٠مناقشة مفردات المادة الدراسية المقررة والكتب والمصادر التي يمكن الاعتماد عليها والانشطة التي لابد من ممارستها وتقديمها والتقديرات التي تمنح جراء انجاز المهمات ٠

ب٠ تنظيم الموقف التعليمي لكي يضفي الارتياح والأقناع لحاجات الطلبة ، أي من خلال تطمين واشباع حاجات ذات مستوى معرفي راق كالحاجة الى الفهم والاتقان والسيادة العلمية ٠

ج٠ البحث عن استخدام أنماط وأساليب متعددة لأجل الباعثية للتعلم ٠

د ٠جعل النشاطات التعليمية التي يقدمها الطالب تترك أثرها في تحقيق تعلم يحمل معنى عن طريق خلق المنافسة الجماعية في الدرس ٠

هـ٠ اعتماد نهج التفاعل الأجتماعي مع الطلبة الذي يتسم بالتعامل الرسمي والحماس والدفء اذ في نهجها تحقيق تعلم جدي فاعل ومنظم (الازيرجاوي ١٩٩١ : ص ٧٣ ، ٧٤) ٠

ان هذه السبل والطرق التي يصار بها ايجاد الدافعية لدى الطلبة والتي ذكرتها التربية الحديثة وعلمائها وباحثيهاجاءت متطابقة الى حد ما مع ما كان يقوم به الطرطوشي في تعامله مع طلبته فيأثناء تدريسه لهم ، مما جعل عددهم يفوق التصور كما ذكر سابقا" ٠

٠٨ الاهتمام بالميول والأتجاهات : ومن الملامح التربوية في تدريسه لطلابه ، والمستنبطة من خلال تفاعله معهم ، والتزامهم به ، وتمسكهم بما كان يلقى عليهم ، والعمل به وانجازه بهمة ودافعية عالية يؤكد انه (أي الطرطوشي) كان يراعي مشاعر طلبته ويهتم بميولهم واتجاهاتهم ، وما يؤكد هذا الاستنتاج شيىء آخر ، وهو الكثرة من الطلبة التي كانت في موكبه ، والتي تسارع الى ان تنهل من علمه والتعرف على اشياء اخرى من خلال صحبته لهم .

٠٩ الشعر : للطرطوشي مجاميع شعرية ، قالها في مناسبات مختلفة ، وهذه المجاميع الشعرية تحوي في مضامينها دروس ورؤا فكرية وتربوية وتأملية ، برزت في فكر ابي بكر الطرطوشي لتظل شاهدا" على قيمة افكاره ونضوجه الفكري الكبير ، ومنها ماكان ينشده باستمرار :

إنَ لله عباداً فطّنا" طلقوا الدنيا وخافوا الفتّنا

فكّروا فيها فلما علموا أنّها ليست لحيّ موطنا

جعلوها لجّة" واتخذوا صالح الاعمال فيها سفنا

ومن نظمه قوله من رسالة :

أقلب طرفي في السمآء ترددا لعلي أرى النجم الذي أنت تنظر

و أستعرض الركبان من كل جهة لعلي بمن قد شم عرفك أظفر

وأستقيل الارواح عند هبوبها لعل نسيم الريح عنك يخبّر

وأمشي وما لي في الطريق مآرب عسى نغمة باسم الحبيب ستذكر

والمح من القاه من غير حاجة عسى لمحة من نور وجهك تسفر

ومن نظمه أيضا" في لوعة الفراق قال :

يقولون ثكلى ومن لم يذق فراق ألأحبة لم يثكل

لقد جرعتني ليالي الفراق كؤوسا" أمر من الحنظل

وينسب اليه قوله :

اذا كنت في حاجة مرسلا" وانت بانجازها مغرم

فأرسل بأكمه جلاّبة به صمم أغطش أبكم

ودع عنك كلّ رسول سوى رسول يقال له الدرهم

(المقري: ص ٨٥ ، ٨٦) .

٠١٠ تلامذة ومؤلفات أبي بكر الطرطوشي :

أ. **تلامذته :** كان عدد تلامذة أبي بكر الطرطوشي وطلابه الذين تخرجوا عليه كثيرون ، وقد ساروا على ذات المنهج الذي سلكه وسار عليه ، ونبغ من بينهم علماء ، ومصلحون بارزون ، ومن بين هؤلاء الكثرة ، اثنين من أبناء ألإسكندرية ، واثنين من أبناء ألأندلس والمغرب ، أما السكندريان فهما : العالم والفقيه الكبير الفاضي سند بن عنان ، خليفة الطرطوشي في مدرسته ، والجالس على كرسي الاستاذية من بعده ٠ والفقيه المالكي كبير علماء الاسكندرية طوال القرن السادس الهجري أبو الطاهر بن عوف ٠ وأما التلميذان ألمغربيان فهما : العالم الكبير قاضى اشبيلية أبوبكر محمد بن عبدالله بن العربي ، والداعية ألكبر ابن تومرت مؤسس دولة الموحدين .

ب. **مؤلفاته** : ان حياة الطرطوشي الغير مستقرة لم تتح له المجال والوقت الكافي للكتابة والتأليف ، وكما نعرف ان حياة التنقل والترحال في ألأندلس ، والحجاز ، والعراق ، والشام ، حالت دون ذلك ، ولم تمكنه من التفرغ للكتابة والتأليف ، ولكن الفترة المستقرة التي قضاها في ألأسكندرية ، وزواجه من الزوجة السكندرية الصالحة ، و نضوجه الفكري في سن الأربعين ، قد تعطينا ترجيحا" بان أغلب مؤلفاته كانت في الأسكندرية في الفترة التي قضاها فيها ، والتي تقارب(٣٠) سنة ، حيث انه وصل ألأسكندرية وعمره (٤٠) سنة ، وقد بلغ مجموع المؤلفات التي الفها (٢٢) مؤلفا" ، الموجود منه (٩) ، وأما الباقي مفقود ، وأما المؤلفات التسع طبع منها اثنان ، والباقي ما زال مخطوط ، و من بين هذه المؤلفات هي : مختصر تفسير الثعالبي ، الكتاب الكبير في مسائل الخلاف ، وشرح لرسالة الشيخ أبي زيد القيرواني ، وكتاب الأسرار ، سراج الملوك ، كتاب الحوادث والبدع ، كتاب بر الوالدين ، ورسالة في تحريم الغنا واللهو على الصوفية في رقصهم وسماعهم ، رسالة في تحريم جبن الروم ، وكتاب الفتن .

رابعا": مواعظ ونصائح ابي بكر الطرطوشي الى السلطان المرابطي أبي يعقوب يوسف بن تاشفين :

يتناول الباحث في هذا المبحث بعض المواعظ والنصائح المستنبطة من رسالة الطرطوشي الى السلطان المرابطي يوسف بن تاشفين والتي سلمها من الأسكندرية اليه الفقيه أبو بكر محمد بن عبدالله بن العربي، أحد تلامذة الطرطوشي٠ وفيما يأتي بعضا" من هذه النصائح والمواعظ :

٠١ العدالة : ان العادل بالحقيقة، هو الذي يعدل قواه ، وأفعاله واحواله كلها حتى لايزيد بعضها على بعض ثم يروم ذلك فيما هو خارج عنه من المعاملات والكرامات ويقصد في جميع ذلك فضيلة العدالة نفسها وليس لغرض آخر سواها ، ويتم ذلك اذا كان مهيئا" نفسيا" فتصدر أفعاله في ضوئها وبحسبها . والعدالة موجودة في ثلاث مواضع :

أ. قسمة الأموال والكرامات : والعدالة فيها تكون بالنسبة المنفصلة التي بين ألأربعة ، أي أن تكون نسبة ألأول الى الثاني كنسبة الثالث الى الرابع . والمثال على ذلك أن يقال نسبة هذا الأنسان الى هذه الكرامة أو الى هذا المال كنسبة كل من كان في مثل مرتبته الى مثل قسطه .

ب.المعاملات والمعاوضات : أما العدالة في المعاملات والمعاوضات فتكون بالنسبة المنفصلة مرة ، وبالنسبة المتصلة مرة أخرى . فمثلا" نقول نسبة هذا البزاز الى هذا الاسكاف كنسبة هذا الثوب الى هذا الخف . ثم لا مانع أن تقول نسبة البزاز الى الاسكاف كنسبة الاسكاف الى النجار أو تقول نسبة الثوب الى الخف كنيبة الخف الى الكرسي ٠

ج. المظالم والأمور القسمية : أما العدالة في المظالم وألأمور القسمية فتكون بالنسبة المساحية وذلك ان الانسان متى كان على نسبة من انسان آخر فابطل هذه النسبة بحيف أو ضرر يلحقه به فان العدالة توجب ان يلحق ضرر مثله ليعود التناسب الى ما كان عليه .

والشريعة هي التي ترسم في كل واحد من هذه ألأشياء والتوسط والاعتدال لان الناس هم مدنيون ولا يتم لهم عيش الابالتعاون فيجب ان يخدم بعضهم البعض ، ويأخذ بعضهم من بعض ،، ويعطي بعظهم بعضا" ، فهم يطلبون المكافأة المناسبة . فاذا أخذ الاسكاف من النجار عمله ، وأعطاه عمله فهي المعاوضة ، اا كان العملان متساويين ، ولكن لا يمنع مانع ان يكون عمل الواحد خيرا" من عمل الآخر فيكون الدينار هو المقوم والمسوي بينهما . فالدينار هو عدل ومتوسط الا أنه ساكت والانسان الناطق هو الذي يستعمله ويقوّم به جميع الامور التي تكون بالمعاملات حتى تجري على استقامة ونظام مناسبة صحيحة وعادلة . ولذلك يستعان بالحاكم الذي هو عدل ناطق اذا لم يستقم الأمر بين الخصمين بالدينار الذي هو عدل ساكت .

يقول أرسطو طاليس (ان الدينار ناموس عادل) ومعنى الناموس هنا السياسة والتدبير ، ويقول (ان الناموس الأكبر هو من عند الله تبارك وتعالى والحاكم ناموس ثان من قبله والدينار ناموس ثالث . فناموس الله قدوة النواميس كلها) (أبن مسكويه : ص ٩٤ ، ٩٥ ،٩٦) .

ان مبادىء الشريعة الاسلامية ، واصولها ، واطلاع الطرطوشي عليها ، والعمل بها قد تكون هي التي جعلته يخاطب السلطان يوسف بن تاشفين الى أهمية الحكم بالعدل بين الناس ، حيث قال له (قال الله سبحانه ((يا داود انا جعلناك خليفة في الارض فاحكم بين الناس بالحق)) الى قوله ((يوم الحساب)) ٠ وقال له (قال سلمان الفارسي ـ رضى الله عنه : ((أتعلمون من الخليفة ؟ الخليفة هو الذي يقضي بكتاب الله ، ويشفق على الرعية شفقة الرجل على أهله))) ٠

وخاطب الطرطوشي السلطان يوسف بن تاشفين في موضع آخر من رسالته مؤكدا" له ومكررا" أهمية أن يسود العدل بين الرعية ، لأنه يحقق النجاح والظفر على العدو ، فقال (يا أبا يعقوب : اذا أردت الظفر بالعدو فعليك بالعدل في الرعية ، فقد روى عن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ أن وفدا" من الوفود قدم عليه بالفتوح ، فقال له عمر : ((متى لقيتم عدوكم ؟)) فقال : ((من أول النهار)) ، قال : ((فمتى انهزموا ؟)) فقال : ((من آخر النهار)) ٠ فقال عمر : ((انا لله وانا اليه راجعون ، وقام الشرك للايمان من أول النهار حتى اعتدال النهار ، والله ان كان هذا الا عن ذنب أحدثتموه بعدي أو أحدثته بعدكم ، ولقد استعملت بعلى ابن امية على اليمن ، أستنصر لكم بصلاحه)) ٠

٠٢ اقامة الصلاة وايتاء الزكاة و ألأمر بالمعروف والنهي عن المنكر : لقد أشار الطرطوشي في رسالته الى يوسف بن تاشفين الى أهمية اقامة الصلاة ، وايتاء الزكاة ، وألأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قال (وقال سبحانه وتعالى ((الذين ان مكناهم في الأرض اقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وامروا بالمعروف ونهوا عن المنكر)) ٠ فمن مكنه الله في الارض ، وأتاه الله سلطانا" ولم يفعل ما أمر الله تعالى به في هذه الآية ، خفنا أن لا يكون من أهلها ، لان الله تعالى وصف هذه الأمة ـ اذا فتح الله تعالى عليهم الارض ، وأهلك عدوهم ـ باقامة الصلاة وايتاء الزكاة وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر) (الطرطوشي : ص١١٢) ٠

٠٣ مسؤولية الوالي عن الرعية : ذكر الطرطوشي في رسالته دور الوالي في رعايته لرعيته ، وما سيكون عليه عند نجاحه ، أو عند فشله لقيادتها ، قال (قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((ما من أحد يلي عملا" أو نال سلطانا" الا اهتز به الصراط حين يركبه حتى يزول كل عظيم عن حقه ، فان كان محسنا" نجا ، وان كان مسيئا" هوى سبعين خريفا")) ٠ فلما بلغ ذلك عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ قال : ((ومن يرغب في العمل بعد هذا ؟ قال له أبو ذر ـ رضي الله عنه ـ من سلب الله انفه ، واصعر خده)) ٠ وروى أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال ما من وال يلي رعية من المسلمين فيموت وهو غاش لهم الا حرم الله تعالى عليه الجنة)) ٠ وروى ان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال للعباس عمه لما قال له ((أمرني على امارة) فقال له رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : ((يا عباس يا عم رسول الله ، نفس تحييها خير من امارة لاتحصيها ، ان الامارة حسرة وندامة يوم القيامة ، فان استطعت ان لاتكون أميرا" فافعل)) ٠

وروى ان عمر بن عبد العزيز لما افضت اليه الخلافة ، سمعوا في منزله بكاء" عاليا" فسئل عن البكاء ، فقيل : ان عمر خيّر جواريه ، وقال : ((قد نزا بي أمر شغلني عنكن ، فمن احبت أن أمسكها لم يكن لها نصيب مني)) قال : فبكين يأسا" منه ، ثم دعا أفاضل المسلمين في زمانه وعلمائهم في وقته : سالم بن عبدالله ، ومحمد بن كعب ، ورجاء بن حيوة ، فقال لهم ((اني قد ابتليت بهذا االأمر ، فأشيروا عليّ بها)). فعد الخلافة بلاء،وانت ونظراؤك تعدون هذا البلاء نعمة .

فقال له سالم بن عبدالله ((يا أمير المؤمنين ، ان اردت النجاة من عذابها فصم عن الدنيا ، وليكن افطارك فيها الموت)) ٠ وقال محمد بن كعب : ((ان اردت النجاة من عذاب الله ، فليكن كبير المسلمين لك أبا" ، وأوسطهم عندك أخا" ، وأصغرهم ولدك ، فوقر أبا: وارحم أخاك ، وتحنن على ولدك)) ٠ وقال له رجاء بن حيوة : ((ان أردت النجاة من عذاب الله غدا" ، فأحب للمسلمين ما تحب لنفسك ، واكره لهم ما تكره لنفسك ، ثم مت متى ما شئت))) ٠

٠٤ تقوى الله سبحانه وتعالى :طلب الطرطوشي في رسالته من السلطان المرابطي اتقاء الله في أمة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقال له (واني لأخاف عليك اشد الخوف ، فاتق الله يا أبا يعقوب في أمة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ، فان لك مع الله موقفا" يسائلك فيه عنهم شخصا" شخصا" ، ذكرا" وانثى ، صغيرا" وكبيرا" ، حرا" وعبدا" ، ومسلما" وذميا" ، فأعد لذلك المقام كلاما" ، ولذلك السؤال جوابا" ، فالذي نفسي بيده ان ذلك لحق مثل ما انكم تنطقون ٠ وروى عبدالله بن عمر أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : ((ما منكم أجد الا ويخلوا بربه ، ليس بينه وبينه ترجمان ، ولا تزول قدما" عبد يوم القيامة حتى يسأل عن خمسة : عن عمره فيما أفناه ؟ وعن شبابه فيما أبلاه ؟ وعن ماله من أين اكتسبه وفيما انفقه ؟ وماذا عمل فيما علم)) ٠

واعلم يا أبا يعقوب : فانه لايزني فرج في ولايتك ومدى سلطانك وطول عمرك ، الا كنت المسئول عنه والمرتهن بجريرته ، وكذلك لا يشرب فيها نقطة مسكر الا وانت المسئول عنها ، ولا ينتهك فيها عرض امرىء مسلم ، الا وانت المطالب به ، ولا يتعامل فيها بالربا الا وانت المأخوذ به ، وكذلك سائر المظالم ، وكل حرمة انتهكت من حرمات الله تعالى ، فعهدتها عليك ، لانك قادر على تغييرها ، وأما ماخفي من ذلك ولم يكن ظاهرا" يراه المسلمون فأنت المبرأ منه ان شاء الله تعالى) ٠

وقال الطرطوشي للمرابطي (ولقد بلغني أن عبد الله العمري لما حج لقي هارون الرشيد في الطواف ، فقال : ((يا هارون)) ، فنظر اليه الرشيد فعرفه ، فقال : ((لبيك يا عماه)) فقال : ((كم ترى ها هنا من خلق ؟)) قال : ((لايحصيهم الا الله تعالى)) ٠ قال : ((فاعلم ايها الرجل ان كل واحد منهم يسأل عن نفسه ، وانت وحدك تسأل عنهم كلهم ، فانظر كيف تكون ؟)) ٠

فبكى هارون الرشيد بكاء" شديدا" ، فجعلوا يعطوه منديلا" يمسح به دموعه ، قال له : ((والله يا هارون ان الرجل ليسرع في مال نفسه فيستحق الحجر عليه فكيف بمن يسرع في مال المسلمين ؟)

ولما دخل طاوس اليماني على سليمان بن عبد الملك قال : ((يا أمير المؤمنين ، هل تدري من أشد الناس عذابا" يوم القيامة ؟)) ٠ قال سليمان ((قل)) ٠ فقال : (أشد الناس عذابا" يوم القيامة من أشركه الله في ملكه ، فجار في حكمه)) . فاستلقى سليمان بن عبد الملك على سريره باكيا" فما زال باكيا" حتى قام عنه جلساؤه) ٠

٠٥ التفاعل مع الناس وعدم الأبتعاد عنهم : لقد حذر أبي بكر الطرطوشي السلطان من عواقب الابتعاد عن الناس والنظر في قضاياهم وامورهم ، ومنعهم من الوصول اليه فقال (ولقد بلغني يا ابا يعقوب انك احتجبت عن المسلمين بالحجارة والطين ، واتخذت دونهم حجابا" ، وان طالب الحاجة ليظل يومه ببابك فما يلقاك ، كأنك لم تسمع قول الله عز وجل : ((وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق)) ، قال الحسن : ((لا و الله ، ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم تغلق دونه الحجب ، ولا يغدى عليه بالجفان ، ولا يراح عليه بها ، ولكنه كان بارزا" ، من أراد أن يلقى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقيه ، وكان يجلس بالارض ، ويوضع طعامه في الارض ، ويلبس الغليظ ، ويركب الحمار ، ويردف عليه عبده ، ويلعق أصابعه ، وكان يقول : ((من رغب عن سنتي فليس مني)) ، قال الحسن : ((فما أكثر الراغبين عن سنته التاركين لها)) ٠

وكان عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ يأخذ درته ويمشي في الاسواق ، ويتفقد أمر رعيته ، وكان يمشي ليلا" في سكك المدينة مع عبد الرحمن بن عوف وغيره من الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ ، يحفظون عورات المسلمين ٠ فروى عنه أنه استعمل سعد ابن أبي وقاص على الكوفة ، فبلغه ان سعدا" أتخذ قصرا" وجعل عليه بابا" ، وقال انقطع التصويت ، فأرسل اليه محمد بن مسلمة ، وقال : ((أيت سعدا" فأحرق عليه بابه)) ٠ فأتى الكوفة وأخرج زنده ، واستورى ناره ، ثم أحرق

الباب ، فجعل سعد يعتذر ويحلف بالله ما قال، فقال له محمد بن مسلمة : ((تفعل ما أمرتك به وتوري عنك القول))) .

٠٦ الابتعاد عن الملذات والشهوات : لقد أوصى الطرطوشي يوسف بن تاشفين الى ضرورة الابتعاد عن مغريات الحياة وملذاتها لانها لاتجدي نفعا" وتقود بصاحبها الى التهلكة ، والتعالي عن الناس باللباس والأكل ، فقال (يا أبا يعقوب : ولقد بلغني انك استأثرت على المسلمين بالحظ الوافر من حطام الدنيا وزخرفها ، فلبست الناعم ، وأكلت اللبن ، وتمتعت بلذاتها وشهواتها ، كأنك لم تسمع قول الله عز وجل : ((أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها)) ، أولم تسمعه سبحانه يقول لنبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ : ((ولا تمدن عينيك الى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه)).

ولقد روت عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت : ((لقد كان يمر علينا الشهران والثلاثة ما توقد في بيوت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ نار)) ٠ قيل : ((فما كان عيشكم ؟ قالت: ((ألأسودان : التمر والماء)) ٠

ولقد روى أن فاطمة ـ رضي الله عنها ـ قالت : ((خبزت رغيفا" من شعير ، فجئت منه بكسرة الى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فقال ما هذا يا فاطمة ؟)) فقلت : ((رغيف خبزته يا رسول الله ، ولم تطلب نفسي أن آكله حتى أجيئك بهذه الكسرة)) ٠ فقال : ((أما انه أول طعام دخل جوف ابيك منذ ثلاثة أيام)))٠

٠٧الجهاد في سبيل الله سبحانه وتعالى : الجهاد : هو القتال في سبيل الله بالمال والنفس لاعلاء كلمة الله سبحانه وتعالى ونشر رسالته السماوية ، ولم يؤذن للمسلمين بالقتال الا بعد الهجرة الى المدينة المنورة بحوالي سنة حتى نزلت الآية الكريمة (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير) الحج / ٣٩ .

ومشروعية القتال في الاسلام يمكن تلخيصها بنقطتين رئيسيتين هما :

أ . الرسالة الاسلامية والدفاع عنها .

ب . الدفاع عن المجتمع الاسلامي ضد الاعتداء الخارجي على الارض العربية الاسلامية .

فالجهاد ركن أساسي من أركان الدين الاسلامي ، وفريضة على كل مسلم ، وعليه أصبح القتال واجبا" ملزما" على كل رجل قادر على حمل السلاح ، وأصبحت الأمة كلها أمة مقاتلة (محمد ١٩٩٢ : ص ٨٦) .

ان اهمية الجهاد في الاسلام ، جعلت المسلمين تواقين للشهادة في سبيل الله سبحانه وتعالى ، واعلاء شأنه ، والعمل على دعوة أبناء الامة للقتال عندما تتوفر موجباته ، ولذلك وجدنا عالمنا الطرطوشي قد حث االسلطان المرابطي على الجهاد في سبيل الله سبحانه وتعالى ضاربا" له الأمثلة والمواعظ الحسنة فقال له : (يا أبا يعقوب ، أنه قد كبرت السن ، وانحلت القوى ، واشتعل الرأس شيبا" ، وارتحلت الدنيا مدبرة ، وجاءت الآخرة مقبلة ، وحان الفراق ، والتفت الساق بالساق ، وجاءت سكرة الموت بالحق ، فالبدار البدار الى حياة لا موت فيها وشباب لاهرم معه ، وصحة لاسقم فيها ٠ قال الله تعالى ((ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا" بل أحياء عند ربهم يرزقون)) ٠٠ الى قوله : ((من فضله)) ٠

يروى عن ابن عباس أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : ((لما أصيب اخوانكم يوم أحد ، جعل الله أرواحهم في اجواف طير خضر ترد أنهار الجنة ، وتأكل من ثمارها ، وتسرح من الجنة حيث شاءت ، وتأوي الى قناديل من ذهب تحت العرش فلما راوا طيب مقبلهم ومطعمهم ومشربهم ،

ورأوا ما أعد الله لهم من الكرامة ، قالوا : ((يا ليت قومنا يعلمون بما نحن فيه من النعم ، وما صنع الله بنا ، كي يرغبوا في الجهاد ولا ينكلوا عنه)) ٠ فقال الله تعالى : أنا مخبر عنكم ومبلغ اخوانكم ، ففرحوا بذلك واستبشروا ، فأنزل الله تعالى : ((ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا" ، بل أحياء)) ٠٠ الآية ٠ وقال ـ جل من قائل ـ ((ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة)) الى قوله : ((الفوز العظيم)) ٠ فما ظنك بتجارة ، الله مشتريها يوشك والله ان لاتبور)٠

ولقد ذكر الطرطوشي لابن تاشفين في رسالته عدد من الآيات القرآنية الكريمة و الأحاديث النبوية الشريفة التي تحث المسلمين على الجهادفي سبيل الله تعالى ، قال : (واعلم يا أبا يعقوب أن الله تعالى فرض الجهاد على كافة المسلمين ، ولا يرده جور جائر ، ولا فسق فاسق الى ان تقوم الساعة ٠

قال الله تعالى : ((قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله و لا باليوم الآخر)) ، الى قوله ((صاغرون)) ٠ فلم يرخص لهذه الامة في ترك جهاد عدوهم الا باعطاء الجزية أو كلمة الاسلام (وهذه الآية نسخت كل آية في كتاب الله تعالى تتضمن الاعراض عن المشركين ٠

وروى أبو بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ ، قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : ((ما ترك قوم الجهاد الا عمهم العذاب)) ، فجهاد الكفار فرض عليك فيما يليك من ثغور بلاد الاندلس ، لانك أقرب الملوك اليها ، وعندك الكراع والسلاح ولامة الحرب و آلتها ، وجيوش المسلمين وحماة البيضة طائعون لك ، وكذلك كل من بنواحيك وجنبات اعمالك من المجاهدين و المقاتلين أولي البطش والقوة ، وانت في حرج من تضييع من في ثغور أرض الأندلس من جماعة المسلمين والحرم والدراري ، أفلا تأسيت بمن سافر اليها ، وأقصى المضى من أرض الحجاز من حماة المسلمين ومجاهديهم حتى استفتحوها ، وبثوا فيها كلمة الاسلام وشهادة التوحيد ؟ فكيف بمن يناسخها ويجاورها ؟) ٠

واستمر الطرطوشي في مناشدته لأبن تاشفين وحثه على الجهاد في سبيل الله واعلاء كلمته ، فقال (ومما أتحفك به ، وهو خير لك من طلاع الارض ذهبا" لو أنفقته في سبيل الله ، حديث رواه الأئمة الثقات عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فروى مسلم في كتابه الصحيح ، نقل عن العدل عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال : ((لا تزال طائفة من أهل المغرب ظاهرين على الحق حتى يأتي أمر الله)) ٠ والله أعلم هل أرادكم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ معشر المرابطين ، أو أراد بذلك جملة أهل المغرب وما هم عليه من التمسك بالسنة والجماعة ، وطهارتهم من البدع والأحداث في الدين ، وألأقتفاء لآثار من السلف الصالح رضي الله عنهم ٠ وانا لنرجو أن تكونوا أولى بقية ينهون عن الفساد في الأرض ، ولقد كنا في الأرض المقدسة ـ جبر الله مصابها ـ تترى علينا أخبارك ، وما قمت فيه من أداء فريضة الله تعالى في جهاد عدوه واعزاز دينه وكلمته ، وكان هناك من العلماء والفقهاء وحملة الدين والعباد والزهاد ، والمنقطعين الى الله تعالى يدعون الله سبحانه في نصرك وتأييدك والفتح على يديك)٠

٠٧ وقبل أن يختتم الطرطوشي رسالته الى سلطان المرابطين أوصاه خيرا" بصديقه وتلميذه أبو بكر محمد بن عبدالله فقال (فلئن كنت تستنصر بجنود أهل الأرض ، لقد كنا نستنصر لك بجنود أهل السماء ، حتى قدم علينا الأرض المقدسة الفقيه أبو محمد عبدالله بن العربي ، وابنه الفقيه الحافظ أبو بكر محمد بن عبدالله ، فذكرا من سيرتك في جهاد العدو ـ أهلكه الله تعالى ـ في تلك الأندية والمحافل والحلق والمجالس ، وصبرك على مكافحة العدو ومصابرته ، وأعزازك للدين و أهله ، والعلم

وحملته ، ما زاد المسلمين بصيرة في الدعاء لك وحسن الاعتقاد فيك ، حتى تمنينا أن نجاهد الكفار معك ، ونكثر سواد المسلمين في جملتك ٠

والفقيه أبو بكر محمد بن عبدالله بن العربي ممن صحبنا أعواما" يدارس العلم ويمارسه ، بلوناه وخبرناه ، وهو ممن جمع العلم ورعاه ، ثم تحقق به ورعاه ، وناضر فيه وجد حتى فاق أقرانه ونظراه ، ثم رحل الى العراق ، فناظر العلماء ، وصحب الفقهاء ، وجمع من مذاهب العلم عيونها وكتب من حديث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وروى صحيحه وثابته ، والله تعالى يؤتي الحكمة من يشاء ، وهو وارد عليك بما يسرك ، فاشدد عليه يديك ، واحفظ فيه وفي أمثاله وصية الله سبحانه لنبيه عليه السلام ، قال الله سبحانه وهو أجل القائلين : ((واذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم ، كتب ربكم على نفسه الرحمة ، والحمد لله رب العالمين)) ٠

خلاصة البحث :

في ضؤء معطيات البحث يمكن ملآحظة ما يأتي :-

١- كان منهج ابو بكر الطرطوشي وفلسفته بالتربية لاتحيد عن فلسفة التربية الإسلامية، فكان يدعو فيها ويرشد الناس للوصول الى مرضاة الله سبحانه وتعالى والعمل للدنيا وألآخرة،وتربية أبناء الأمة الاسلامية على وفق ذلك المنهج وتلك الفلسفة .

٢- كان توجهه الى الدنيا قليل والى الآخرة كثير وكبير ، فكان يقتات على القليل ، ويرضى باليسير ، ويجهد في فعل الخير ، قولا" وفعلا" ، حتى صار محط أنظار الناس في زهده وعلمه وتقواه .

٣- أعطى الأولوية في المنهج التربوي ، ومصدريها الأساسين القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ، وعدها الأساس الأول الأول في بناء شخصية الفرد الجسمية والعقلية والروحية والأجتماعية ..الخ .

٤- كان رحمه الله تعالى غيورا" على دينه الدين الاسلامي ، فكان لا يخاف ولا يهاب في قول الحقيقة والعمل الصالح مهما كانت الظروف التي تحيط به ، ولذلك صار محط تقدير واحترام الآخرين كبارا" وصغارا" ، سلاطين ووزراء بالاضافة الى سواد الناس .

٥- يعد مجددا" في أساليبه وطرائقه التدريسية ، فكان يعتمد الرحلات الى الارياف مع طلابه لغرض الدراسة ، وهذا ما تنادي به التربية الحديثة اليوم .

٦- كان جهاديا" في فكره وقلمه ولسانه ، فكان يحث امراء المسلمين على حماية المسلمين وديارهم من دنس الأعداء ، وأوجب عليهم الجهاد في سبيل الله تعالى .

المصادر

القران الكريم ٠

١. ألأزيرجاوي ، فاضل محسن ٠ أسس علم النفس التربوي ، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي ، جامعة الموصل ، مطبعة جامعة الموصل ، ١٩٩١ ٠

٢. ألالوسي ، جمال حسين و خان ، اميمة علي ٠ علم نفس الطفولة والمراهقة ، جامعة بغداد ، كلية التربية ، مطبعة جامعة بغداد ، ١٩٨٣ ٠

٣. ابن خلكان ، ابو العباس شمس الدين احمد بن محمد بن ابي بكر ٠ وفيات الأعيان ، الجزء الرابع، تحقيق د٠ احسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٦٨ ، (ب ٠ ت)٠

٤. ابن مسكويه ،أبو علي احمد بن محمد . تهذيب الاخلاق في التربية ، ط١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ١٩٨١ .
٥. جرادات ، عزت وآخرون ٠ مدخل الى التربية ، الطبعة الثالثة ، عمّان ، المملكة الاردنية الهاشمية ، ١٩٨٦ ٠
٦. عاشور ، سعيد عبد الفتاح ، وآخرون ٠ دراسات في تاريخ الحضارة الاسلامية العربية ، ط ٢ ، منشورات ذات السلاسل ، الكويت ،١٩٨٦ ٠
٧. عبد المجيد ، صلاح الدين . أقباس من أخبار الخلفاء الراشدين ، منشورات جمعية رابطة العلماء ـ الموصل ، مطبعة اسعد ، بغداد ، ١٩٩٠ .
٨. سيف ، أحمد محمد نور ٠ مجالس المذاكرة ، دار البحوث والدراسات الاسلامية واحياء التراث، سلسلة الرسائل / ٨ ، الطبعة الاولى ، دبي ، ٢٠٠٤ م ٠
٩. شمس الدين ، عبد الأمير ٠ المذهب التربوي عند ابن جماعة ، دار اقرأ ، ط٢ ، ١٩٨٦ ٠
١٠. الشيال ، جمال الدين ٠ أبو بكر الطرطوشي ـ العالم الزاهد الثائر ، أعلام العرب ، وزارة الثقافة، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٨ ٠
١١. الطرطوشي ، محمد بن الوليد ٠ نص رسالة أبي بكر الطرطوشي الى السلطان المرابطي أبي يعقوب يوسف بن تاشفين ٠ ملحق في نهاية كتاب أعلام العرب ، أبو بكر الطرطوشي العالم الزاهد الثائر ، لمؤلفه جمال الدين الشيال ، القاهرة ،١٩٦٨(ص ص ١١٢ ـ ١٢٣) ٠
١٢. الكبيسي ، عبد الواحد حميد . دراسة مقارنة بين الرياضيات وتدريسها قديما" وحديثا" ، مجلة كلية التربية ، العدد السادس ، بغداد ، الجامعة المستنصرية ، ٢٠٠١ .
١٣. المقري ، الشيخ احمد بن محمد ٠ نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، حققه الدكتور احسان عباس ، المجاد الثاني ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٨ ٠
١٤. منتصر ، عبد الحليم ٠ تاريخ العلم و دور العلماء العرب في تقدمه ، طبعة مزيدة ، دار المعارف، ١٩٨٠ ٠
١٥. محمد ، فوزي رشيد ، وآخرون . تاريخ الحضارة العربية الاسلامية ، جمهورية العراق ، وزارة التربية ، ط٣ ، شركة السرمد للطباعة المحدودة ، ١٩٩٢ .
١٦. محمد ، داود ماهر ، و محمد ، مجيد مهدي ٠ أساسيات في طرائق التدريس العامة ، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي ، جامعة الموصل ، ١٩٩١ ٠
17. (w w w . islam on line . net).
18. (w w w alwatan . com) .